کتابات

حالات

غسان كامل ونوس

كتابات

حالات

حلم الصباح

أفاق الصباح متلبساً بالحلم، خجل من نفسه، كاد أن يخفي وجهه بالغيوم، يخاف إن كان قد نمَّ عنه ما لا يودّ أن يعرفه أحد، أو ظهر على ملامحه ما ينبئ عما يفكر فيه، وما زال يخطر على باله؛ فهو ما عاد مراهقاً، صار عمره يعد بالملايين، منذ أن كان يأتي ويذهب من دون أدنى حركة أو صوت.. ومن ثمّ، فرح لخفق الأجنحة وتواتر الأصوات، وطرب لوقع الخطو المتعثر والواثق، المتسارع والمتمهل، الحاجل والقافز في الاتجاهات كلها، وفي الطرق الوعرة قبل أن تصبح غير ذلك. ضحك لبكاء مواليد لا تعدّ ولا تحصى، واغتمّ لتغييب كثيرين وكثيرات، واستمع لأمنيات وأحلام تطيرها شفاه وأحداق في لحظات تكثف ذاتي، وتعذّب لآهات وولولات في حالات تفجّع وتوجّع، عايش الشوق، وكابد الفراق مع الفاقدين، ورعى المحبين، ورافق الطموحين والساعين في مناكبها.

وسمع شكوىَ ربما لم تخرج من فم عاجز عن تحقيق طلب ولده ثمن دفتر أو ممحاة، قبل أن يحرن ولد

من نوع السيارة التي ستقله إلى المدرسة! ولاحظ تلميذاً يجرجر خفّه العالق من مقدمته، على دروب صكتها حوافر وأقدام وغرائز وأحلام..

نظر الصباح حوله، جفل من أصوات منبهات، وسحق عجلات، وأزيز آلات، وتوتر من كلام نزق وسلامٍ بارد، وكاد يحترق بلهاث محموم، وأصداء نواياً قاتلة.

أغمض عينيه، محاولاً تذكر وشوشات دافئة، ونداءات عذبة، وزقزقات مشاغبة، ومسترجعاً مشاركاتٍ وتوددات وتآلفات وطقوساً في مناسبات سنوية أو موسمية، أو يومية..

فتح عينيه، ليجد الكائن العاقل مشغولاً بما لا يعقل، ومندفعاً وراء ما لا يبتغي، وغارقاً في همه ومتاعبه وبؤسه وشقائه..

شرد قليلاً في الأفق الشاحب، وتنهد:

"عرفت الكائن الضاحك قبل أن يضحك، ثم حين كان ضحكه يجلجل خارجاً من قلبه، إلى أن صار ضحكاً كالبلاهة، أو ضحكاً على النفس، أو كالبكاء. وصار الوجه ساحة اضطراب واكتئاب وترقب..!

عرفته منذ سلطان الغريزة إلى مستهل الحب وفيض العواطف وأطلال المشاعر..".

هرش الصباح رأسه، وقد أغمض عينيه، محاولاً استرجاع حلمه الذي ما فتئ يراوده عن شيبته وقِدَمِهِ وتاريخه؛ الحلم الذي كان يبثه للكائنات فتفرح، وتزداد حيوية ونشاطاً، وتشع زغاريدها، وتندفع مشحونة بألف

دافع.. ولا يحمل كثيراً على الانشراح، ولا يدعو إلى التفاؤل..

بدا الحلم مشوشاً، والمشاهد مترجرجة، والمفاصل مقلقلة. فتعثر في ترديده: ترى، هل فقدت ذاكرته المزمنة مرونتها وقدرتها على الاحتفاظ؟! أم أن الحلم ما عاد مقنعاً، والزمن ما عاد زمن الأحلام، وما عاد من ينتظرها كل يوم؟!.

أحس الصباح بثقل الوقت، وعبء المسؤولية، وراوده شعور بالاكتئاب، حين تراءى له أن من غير المفيد إلقاء حلمه إلى الكائنات، كما كان يفعل منذ آلاف السنين، وأحس بقلة الفاعلية، وضعف مسوّغ حضوره ووجوده، وعدم جدواه ربما، أحس بالخسران وحيداً في عالم ينساه، واضطرب، وهو يفكر في حلمه الذي يكاد يضيع.. لولا بضع كائنات تغالب الوحدة والإهمال والنسيان.. وتنسل مشاعرها خلل الزحام.. أغض النظر إلى الدنيا، عاد إلى ذاته، بدأ يستعيد عناصر حلمه شيئاً فشيئاً، وقد أحس بقدْرٍ من السعادة الذاتية، قدْر لا غنى عنه لاستمرار حضوره، لأنه ـــ على الأقل ـــ ما زال يحلم، وما زال هناك من ينتظر حلمه، ولو قل الكرام..!

احتراق

قد يبدو السؤال خارجاً عن الموضوع، ولا مكان لـه أو لجوابـه، ولا وقت لأخذه علـى محمل الجد.. لكنّ فـي طرحه إرضاء لغريزة المشاركة، أو إحساساً بالوجود من خلال التفكر والاستغراب والدهشة؛ إن فـي طرحـه قلقاً وحيرة وعدم رضى أو اقتناع، أو لنقل إنه خوف مما هو أعظم..!

صحيح أن أسباباً عديدة ذاتية وموضوعية، داخلية وخارجية، تتداخل وتتقاطع وتتشابك، لتعطي هذه النتيجة.

لكن الصحيح أيضاً أنه من غير الممكن أن تهز رأسك، أو ترفع يدك أو صوتك موافقاً ومؤيداً، ومساعداً علـى مرور أو تمرير أشياء لا تحبها، وأفكار لا تقتنع بها، وطروحات لا تستسيغها، وتبريرات عصية علـى الهضم، وقد يكون من الصحيح أيضاً أن عدم موافقتك قد لا يمنع حدوث شيء، ولا يقدم أو يؤخر فـي ما يجري؛ لكن الصحيح أيضاً وأيضاً أن تسجيل موقف لـه معنى كبير حتى أمام الذات نفسها، هذه الذات التي تتعرض لهزات عنيفة، ووجع ملحّ حيال ما يجري.

فإن انهممت بما هو قومي، سخر منك العَوْلميون.

وإن تكلمـــت بحـــس وطن،يواجهـــك غـــافلو السلام/الاستسلام.

وإن تحدثت بمنطق الأخلاق، عارضك الواقعيون.

وإن فكرت بالمبادئ والقيم، هزئ منك الماديون.

وإن قلقـت مـن التجـاوزات، تجاوزتـك الحسـابات والموازنات.

وإن هبـت نسـائم الحنـين إلـى الماضـي، قهقـه المتعصرنون.

إن تخلفت عن المشاركة في وليمة ليست لوجه الله، سفّهك المؤيدون، وكفّرك المباركون، وأخطأتك الغيوم الماطرات..

إن ابتعدت، لامك الأقربون.

وإن اقتربت، لفحتك نار المتحسسين.

وإن وقفت للتساؤل عن الجائزة والجدوى، بعثرك المتسابقون، وأصبحت خارج الوقت والسباق والاحتمال..

*

تقف على حافة حادة، تحتك هوة سحيقة تستقبل القافزين منهم، تصيح بك الأصوات، اقفز! تنظر إلى تحت؛ عمق وسواد، قهقهة القافزين يتردد صداها أصواتاً غامضة تشبه الأنين؛ هل هو أنين النشوة أو الألم؟! اللذة أم الوهج؟! الفرح أم الخيبة؟! الدهشة أم الانتصار؟!.

تنظر إلى فوق؛ جنون ولهو وتشابك يشبه العراك، صيحات وتدشؤات واندفاع صوب الهوة..

الواقفون على الحافة مثلك، يتناوبون النظر إلى فوق، وإلى تحت، وملامح الحيرة والشك واليأس والخيبة تتناوب الوجوه، هل في التأخر عن القفز خسارة وابتعاد عن الركب المزركش، والكنز الموعود؟! أم أن فيه فرصة لالتقاط الإشارات وتمحيص المسموعات وترجمة الرموز.. لالتماس الخلاص؟!

ولكن السؤال الملحّ هو: إلام تستطيع تحمل الوقوف على قدم واحدة، على حافة حادة كالسكين؟! إلى متى تمكن مقاومة الريح التي تهب في اتجاه وحيد، وإلى أية درجة تستطيع الترفع عن الترغيب، والتغافل عن الترهيب، منتظراً أن ينتهي الكابوس، لتفيق، وتروي ما رأيته للشمس، آملاً أن لا يتحقق..

*

وتتوالى الأسئلة المرة: هل المعرفة والعلم والتبصر نقمة أم نعمة؟! هل كان أفضل لك أن ترى ما يراه الظاهريون، وتتوقف رؤاك عن متابعة الخلفيات والقيام بالمحاكمات، والوصول إلى الاستنتاجات؟! وهل هذا ممكن؟!

إنه ابتعاد عن ممارسة أبسط واجبات البشر، وحقوقهم: التفكير.

وأسئلة موجعة أخرى: هل أولئك جميعهم لا يفكرون؟! هل هم قاصرون أم مقصرون أم واهمون أم شُبْه لهم؟!.

قدرك أن تفكر وتساءل وتحلل وتستنتج، وخلال هذا وذاك، تحلم وتيأس وتتعذب.

لكنك عاجز عن الموافقة، عاجز عن الإغماض، عاجز عن السكوت، عاجز عن الفعل؛ قدرك أن ترى وتحس وتتألم.

قدرك أن تحترق، ولا بأس من بعض الدخان..

فهل هذا أضعف الإيمان؟!!

إذا ضاعت المروءة!

ما زالت ترن في أذني كلمات قالها أحد الفرسان المخدوعين لرجل ادعى المرض والإعياء، حتى استدر عطف الفارس وشهامته، فنزل وأركبه على فرسه، ففرّ بها تاركاً صاحبها وحيداً في صحراء مقفرة، فناداه الفارس عن بعد قائلاً: أرجوك أن لا تخبر أحداً بالذي حدث، حتى لا تموت المروءة في الصحراء!

وفي كل مرة أسمع خبراً عن غش وخداع واحتيال وكذب ومماطلة ونميمة وغيبة ورشوة وإهمال مقصود.. أقول:

هل من الممكن أن تموت المروءة في هذه الحياة!! وهل على المرء أن يعيش في حذر دائم، وشك لا ينقطع، حتى يأمن الشر المتربص من كل جانب؟! ما زلت أعتقد أن الأمر لم يصل إلى هذه الدرجة، لكن ما تلقاه وتخبره وتسمعه، يجعلك تخشى أن تصبح من المغفلين الذين لا يحميهم القانون، ولا يرحمهم الواقع، ولا ترأف بهم الألسن، ولا تنتظرهم العجلة التي تسير خبط عشواء. وما زلت أتشاءم من الدروع ــ حتى البشرية ــ التي يبتنيها الكثيرون رداً للسهام، ومن القواقع التي ينكفئ إليها الآخرون، ولا تقل أخطارها عنفاً وفساداً ونرجسية

وتوهماً عن كثير من أخطار التعرض للشمس أو للعواصف.

وما زلت أظن أن هذه المحميات واهية، وهي ليست إلا إلى حين، حتى إن كانت من بيتون مسلح أو رخام صلب أو قرميد مقاوم للنار. وأفكر في مصير الكثيرين الذين لا قدرة لهم على المواجهة ولا على إقامة هذه الموانع، وربما ليس لديهم رغبة في تصور مثل هذه الحال؛ لأن الحياة حينها ستصبح جحيماً لا مبرر للاستمرار فيها.

وفي مراجعة بسيطة لسلوك الناس وأحاديثهم وأخبارهم، ستجد الكلام عن السلبيات يكاد يكون الغالب الأعم.

يمكن أن يتم التغافل عن حسنات كثيرة، وتناسي فضائل عديدة، وتُتجاوز مواقف مشهودة لشخص ما، ويلجأ إلى التعلق بأية إشاعة حوله، والكلام عن موقف تُشتَمُّ منه رائحة غير مستحبة، ويصبح هذا الموقف مقياساً له وعنواناً لتاريخه وربما لعائلته أو قريته أو مدينته.

ومن المستبعد أن يذكر أمر حسن لشخص، من دون أن يعرج على إمكانية أن يكون وراءه ما يسيء أو يشار إلى شكوك في الطريق أو الغاية، وإلا جاء الخبر عنه بلا طعم وبلا جاذبية، وكان المخبر بائساً جاهلاً بأصول اللعبة.

لا شك في أن الحياة تعقدت، وتشعبت سبلها، وتشابكت علاقاتها، وتعمقت مآسيها، وكثر الإحساس بالظلامة والشكوى.

لكن الذي يثير الانتباه، ويحير المراقب الحيادي، ويضيع الموضوع، أن الشاكي ليس دائماً على حق، وأن المتحدث ليس دقيقاً أو متأكداً، (وإن كان لا دخان بلا نار)، ولذلك يحتاج الداعي والمدعى عليه إلى شهود ومحامين وقضاة.

وهذا كله يؤدي في النهاية إلى البلبلة والتشويش والتشويه والإحساس الدائم بالأذى الموشك، كما قال ابن الرومي يوماً:

"فكأنما متربّصٌ أن يُصفَعا"!

وخاصة إذا طال الأمر بين الادعاء والتحقق من صوابه أو خطئه، وإن حجراً رماه مجنون في بئرٍ عميقة يحتاج إلى عقلاء كثيرين لانتشاله، هذا إذا توفرت الرغبة والحماسة لذلك.

ولكن كيف سيصبح الحال إذا كان من رمى الحجر (عاقلاً) يعرف كيف يرميه وأين ومتى؟!

إذا ما ضاعت المروءة من الحياة حقاً، يصبح من غير المنطقي أن يحسد المرء على بقائه فيها!!

مشكلة؟!

لا شك أن في الأمر مشكلة، وإلا ما كان يحدث هذا؟!

أنت لا تطلب ثمناً لموقفك، وما تقوم به أمر بسيط؛ بل هو ممارسة واجبة، والواجب ليس له ثمن أو مِنّة.

أنت تقوم بعملك، بما هو مطلوب منك حسب موقفك، وتربيتك وقناعتك؛ مع ذلك، هناك مشكلة!

أنت تحظى بثقة مديرك ــ أو مديريك الذين تعاقبوا ــ هكذا يعبر دائماً، ويفاخر بك ويعتز بنشاطك وسمعتك!

أنت تحترم مرؤوسيك، تقدرهم، تعاملهم معاملة حسنة.

أنت لا تنقل مشاكل البيت إلى العمل، ولا تلقي تبعات زواجك على مراجعيك، فلا تصرخ في وجوههم، ولا تتباطأ في الرد عليهم، ولا تصرفهم، أو تؤجلهم بلا داع؛ فهم لم يختاروا لك، ولا أخذت رأيهم، ولا دعوتهم، ولا تلقيت هداياهم.

قد يعرف بعضهم أشياء متناثرة عن مستوى الشجار الذي يدور في البيت لأسباب تتعلق بالوظيفة.. رغم أنه متوقع وطبيعي؛ فأنت، وعلى امتداد عمرك الوظيفي

الذي يماثل نصف عمرك الحقيقي وثلاثة أرباع عمرك الواعي، لم تعدّ أن لك حقاً شخصياً في ما عملت جاهداً على إنجازه.

زوجتك؟! لتلبس خشناً، ولتشد الحزام على البطن، ولتعض على الأنياب..!

بعدما تعبت من الصراخ، وملّت التأفف، والتهديد بالخروج.

أولادك؟! رزقهم في السماء؛ أنت لم ترث عن أبيك سوى عزة النفس والرأس المرفوع، ولست مضطراً ــ ولا قادراً ــ أن تورثهم أكثر من ذلك؟!

فهل يرضون؟!

أنت رضيت.. ودافعت عن قناعتك، ووقفت موقفاً اختلف عليه مقوّموه، واحتار معايشوك، وعلى أولادك أن يأتّموا بك. ولكن، أليس هذا ظلماً؟! ألست تقسو عليهم بإرغامهم على سلوك هذا السبيل، بينما أترابهم يرثون المال والجاه والمواقع الاجتماعية، والمشاريع التي تكفي لعاشر جيل؛ "أولادكم خلقوا لزمان غير زمانكم"؟!. وأنا لم أقل غير ذلك ــ أنا لا ألزمهم بشيء، ولكن لن أعطيهم سلاحاً يقتلون به أنفسهم، ويقتلوني ويقتلون الوطن؟!

وهل أنت غيور على الوطن أكثر من سواك؟! أليس وطن الجميع؟!

في الأمر مشكلة! لا شك في ذلك!

أنت تنقلت بين مختلف الأقسام، لأنك محط ثقة أولاً، وموضع أمانة ثانياً. وصرت خبيراً مفوضاً من دون كرسي "أو حقيبة"، أو مستشاراً شخصياً "موثوقاً"!

يبدو أنك لا تصلح لما هو أكثر من ذلك.. ولا تطمح أو تأمل، أو تتوق إليه. لأن لك صفة ـــ قليلون من يحملونها، وربما كانت نادرة ـــ

غيرك يأخذ ولا يعطي، وفي أحسن الأحوال (يأخذ ويعطي)؛ أما أنت فتعطي من دون أن تأخذ.. حتى راتبك وبيتك وسنواتك مرهونة للمصارف..

إنك تعطي من وقتك وجهدك، وعلمك وخبرتك؛ هدك التعب، انحنى جسمك، لكن رأسك مرفوع وصدرك مشرع ـــ كالبجع ـــ لمناقير زوجتك وأولادك وأقربائك والآخرين..

رأسك مرفوع لا ينحني إلا لخالقه، مرفوع ذلك "اليابس" كما يهمس المغرضون. لا تؤثر فيه حتى وشوشات الجبن، ولا تهم الغباء، أو حيرة المترددين في وصفك وتحليل شخصيتك..

أنت محيّر فعلاً؛ فرغم أنك واضح كالشمس، ناصع كالثلج، صافٍ كمياه النبع؛ أنت لا ترحم، ولا تترك الرحمة ـــ ليست رحمة الله ـــ تنزل على الآخرين.

أنت ترحم بطريقة مختلفة، ترحم بما لا يسمن ولا يغني.. لا أسمنك أنت، ولا يسمن الآخرين..

وغيرك رأسه محني إلى أية درجة تلزم للمرور تحت العتبات.. المنظورة والمتوقعة؛ لذا تجد رأسه يرتفع وينخفض باطراد، يتحسس الرياح ليسير في اتجاهها، ويتشمم الروائح ليلحق الأثر، ويصطاد الرنين الذي ينقاد هو إليه من دون إبطاء للتردد أو التفكير، أو الخوف مما يمكن أن يحدث ..

أنـت الآن مهم إلـى درجـة لا تحـددها أيـة مسـؤولية، ولا يسـعك أي موقـع، ولا يتحملـك أي "مسـؤول".. ولا يليق بك أي توقيع؟!

هناك مشكلة!

ألـم أقـل لـك إن هنـاك مشـكلة، (أو مـؤامرة).. أو تساؤلاً أو دهشة أو غصة أو خيبة أو اكتئاباً؟!

ولات ساعة رجعة

مقلقل الخطوة تمشي مقهوراً، عيناك تنوسان كسراجين يفتقدان الزيت، والوجه أرض غير محروثة منذ أعوام؛ قامتك المديدة تتعرج، وأنت تدب على الطريق الشائكة مثقلاً بسني العمر، وخزائن القناعات، وشحنات المبادئ.. وحيداً إلا من ظل طالبين، وهيمنة متنفذين، وأنفاس مكتنزين..

يقول قائل: إنك تستحق ما أنت فيه؛ فقد كنت في بيدر الجنى، مغموراً بالعز والأسئلة والدعوات والقبلات والثروة ــ التي ليست لك، وظلت كذلك ــ ولم تستطع أو تقبل أن تقبس منها قبضةً، تغنيك إلى أولاد أولادك.

ولم ترد أو تستطع أن تستنسخ مفتاحاً، لتصبح كنوز المغارة ملك يديك. ويقول قائل: ما حدث لك أهون الشرور، مجرد إزاحة من الواجهة، إزاحة مع كامل الاحترام والتقدير: اقعد في بيتك، ونلْ كل مرتباتك وتعويضاتك، كأنك على رأس عملك؛ وخاصة الحوافز والعمل الإضافي..

مفارقة مضحكة؛ عمل إضافي وتعويض مسؤولية وحوافز، وأنت قاعد في بيتك. والربح معهم!

وتقول: ليس هذا مهماً، المهم أن يعرف الجميع أني ما زلت أعيش. ليس من أجلي؛ بل من أجل حفنة القيم التي دافعت عنها.

ولكن الجميع لا يعرفون سوى أنك لست في الواجهة، وأن في الواجهة آخر، يستطيع ويفعل من دون أن يكون مسوغاً ذلك، أو من دون أن يكون مطلوباً ذلك التسويغ.

وتقول: لقد حميته من نفسه، قبل أن أحميه من غيره، وكان يتخبط في رغباته، ويتعثر في طموحاته أو أطماعه، وكان يبحث لائباً عن طرق توصل، وكاد خلال ذلك أن يفقد كيانه، فساندته.. أمنت له سبل البقاء، وطرق التعرف إلى الناس، وكيفية التعامل بلباقة. خففت من الاندفاع القاتل، ونبهته إلى الطرق التي توصل، الطرق المشروعة وغير المشروعة. وهديته ــ حسبت ذلك ــ إلى الطرق المنجية للنفس والمحصنة للمستقبل سمعةً وأمانةً وصدقاً.. وكان موقعه مبتغى الكثيرين فساوموني عليه، وما قبلت. وما هان عليّ من هنت عليه، وما رحمني من علمته الرماية سنوات، فلما اشتد ساعده رماني!

ولكن الكلام كل الكلام لا يفيد، والعزاء الذي تسمعه حين تلتقي بأحدهم مصادفة، لا يرجع الأمور إلى نصابها، ولا الحزن يعيد الميت ولا الندم. لا.. أنت لم تندم.. فما فعلت كان يجب أن يفعل، ولو عدت إلى الموقع ذاته ــ ولات ساعة رجعة ــ ستتصرف بالصيغة ذاتها. لأنك من طينة مختلفة، طينة قديمة أصيلة، قد يصبح الكشف عنها إنجازاً، وقد توضع في المتاحف، ليتفرج عليها الهاوون، والذين يضيعون وقتاً بين

الاجتماعات والندوات والمؤتمرات، ليقولوا: انظروا، أرضنا منجم للعراقة والأصالة والتاريخ، ثم يمضون لا يلوون على شيء!

حميته من نفسه، فمن سيحميه الآن وبعد الآن؟! والنفس أمارة بالسوء. وهذا ما تدل عليه أفعاله، وما تشي به إنجازاته الخاصة، وما تنم عنه ألسنة الرائين والسامعين والمراقبين..

حميته من نفسه، لكن نفسه الآن تُغْرِقُه، فمن يعينه؟! بعد أن ابتلت أجنحته، ربما استعذب الأمر، واستطاب الأوقات المزينة بالبهرجة والعطايا والإمكانيات المتاحة، بلا وازع.

استطاب ما نفرت منه، واستعذب ما كرهت، والناس طباع، ومزايا وقدرات.

لو وقفت في الساحة، متحدثاً عن ذلك، لن يستمع إليك أحد، ولو ألححت عليهم، لقالوا: أعانه الله في بلواه، وأعاد إليه عقله، وربما ترفقوا بك ونقلوك ـــ إنسانياً ـــ إلى مشفى الأمراض العقلية..!

يتحدث إلى نفسه

كان يمشي مشغولاً بالحديث، ولم يكن معه أحد؛ كان يتحدث إلى نفسه..! جميعنا قد نتحدث إلى أنفسنا، حين نكون وحيدين؛ نفكر، ونقلب الأفكار، نحلم، ونأمل، نسترجع ونحلل؛ لكن حاله مختلفة، فهو يتحدث بصوت مسموع؛ بل بصوت عالٍ. ليس هذا فحسب؛ بل كان يؤكد الحديث بالإشارة المناسبة بيديه، ورأسه، وأحياناً بقدميه! لم يكن حديثه عادياً، حديث مفاجأة أو مُسَارَّة أو بوح؛ كان حديث معارك وبطولات وانتصارات.. لا المعارك حدثت، ولا البطولات كانت، ولا الانتصارات تحققت.. لم يكن صاحبنا من أصحاب السوابق، ولا المشاكسات تعنيه ولا المشاكل.. لكنها طريقة اعتاد عليها، لإرضاء نفسه، ربما، لو بانتصارات وهمية. أو لمغالبة الطريق التي كانت طويلة وشاقة.. فيصل إلى المكان المقصود راضياً منشرحاً.. فائزاً حتى على الوقت الطويل..

هذا الرجل صار في ذمة الله؛ ولكن حاله ما زالت تشغلني.. فالحديث إلى النفس شائق وشائك.

في أحيان كثيرة تتمنى أن تجد من تتحدث إليه، تنفثه همومك، تبوح إليه بمكنوناتك، وتلقي إليه بتنهداتك، وتطلق على مسامعه آهاتك.. لكنك تحجم، لأنك لا تجد

من يستمع إليك، وترتاح إليه، لانشغال الكثيرين بهمومهم ومتاعبهم مثلك.. أو لانشغال الآخرين بالحديث بما هب ودب، وربما صرت تخاف، بعد تجارب كثيرة، أن يستخدم هذا الذي ستبوح به ضدك في لحظة حساسية قادمة، أو حالة خصومة متوقعة، أو مشادة ممكنة.. فما عليك إلا أن تشد حزامك، وتتكور على ذاتك، تحاول أن تفرش لوحدتك البسط غير الممتدة، وتفتح أبواباً مستعصية.. وما إن تمضي في ذلك، مع كثرة المنغصات، وسعة الجراح، وكثافة الدمامل، حتى تجد نفسك بعد قليل متعباً منهكاً مشتتاً عاجزاً عن لملمة الأنات، أو إيقاف النزف الذي خرج عن السيطرة، فتندب حظك من جديد، وتزيد من لوم نفسك وتقريعها، وتعود إلى ما هو أسوأ من حالتك الأولى، خاسراً مكتئباً مهزوماً.. رغم أنك لم تتلقّ رفسة أو لكمة أو صفعة، ولم توجه مثلها؛ كما كان يفعل ذلك الرجل، وكما يفعله الكثيرون سواه في أوقات مختلفة، ومن مستويات متعددة مسؤولين ومرؤوسين، تابعين ومتبوعين؛ إذ يتحدثون بالطريقة ذاتها. لكنه لم يكن يتحدث إلى أحد، وكان يمكنه إطلاق العنان لخياله، فلن يكذبه أحد، من سمعه كان إما متخفياً بين الأشجار أو متوارياً خلف الصخور، أو متلفعاً بعباءة الليل شديدة السواد.. والأهم من ذلك أنه لم يكن يسيء إلى أحد، أو يؤذي أحداً، إلا من يكون خصماً وهمياً أو عدواً مفترضاً مهزوماً.

أما هؤلاء الذين يتحدثون إلى الناس، يغفلون ــ ربما ــ عن أن هناك من يسمع ويرى ويحلل، وقد لا يقتنع، وهذا السكوت لا يعني الموافقة دائماً.. إنهم ينسون أو يتناسون ذلك، فترى الواحد منهم فارساً لا يشق له غبار،

أو عالماً بحراً لا قرار له، أو مثالاً في الأخلاق لا يمكن مجاراته، وهو في المكرمات أبوها وفي الوقائع سيدها.. وكثيرون منهم يتحدثون عن معارك لم تجرِ، وبطولات لم تنجز، وانتصارات لم تتحقق؛ يمتدحون أمثلة لا يتمثلونها، وقدوات لا يقتدون بها، وقيماً لا يراعونها؛ ويتفاخرون بمبادرات ليسوا من أصحابها، وباختراقات لم يكونوا روادها؛ ويبالغون في الكلام عن مساهمات لم يشاركوا بها، وإبداعات مدعاة، وقدرات كالمعجزات..

صحيح أنهم لم يوجهوا إلى من يستمع إليهم مرغماً أو راغباً لكمةً على الفك، أو صفعة على الوجه، أو رفسة في الظهر، كما كان يفعل ذلك الراحل.. لكن المستمعين تعرضوا لما هو أقسى، فأصيبوا بأذية في العين، وضرر في الأذن، وكدمات في الذاكرة، ودمامل في الذهن..

والأصعب من ذلك، أنهم تساءلوا كثيراً عن معنى هذا ومسوّغه وأسبابه والمسؤول عنه؛ والأمرّ من هذا أنهم لا يستطيعون البوح بالإجابة حتى لأنفسهم!!

ليست الأولى ولا الأخيرة..

ليست الغصة الأولى ولن تكون الأخيرة، ليست المرارة الأولى ولا الأخيرة، ليست الخيبة الأولى ولن تكون النهائية؛ فمسيرة الوجع والشوك والإحباط متواصلة، ما دمت على قيد الحياة/ المواجهة. وما دمت على الفطرة نفسها والوعي عينه، وعليك أن تتحمل كي تستمر، عليك أن تستمر كي يبقى في الميدان من يذكّر هذا الصنف من الأحياء، أن الأمور لا يمكن أن تستمر بهذه الطرق فحسب، الطرق الملتوية المتباهية المزاودة، التي ازدادت حتى كادت أن تصبح سمة عامة للمعابر إلى الجهة الأخرى؛ حيث الجاه والثروة والخدم والحشم و"شبيك لبيك".

يجب أن تستمر أنت في الوجود، ولو أزعج ذلك الكثيرين ممن يحسبون أنهم يملكون مفاتيح الجنان جنان الدنيا، وكلمة السر لمغارة الحرامية الذين قد يزيد عددهم عن الأربعين!

عليك أن تستمر، ولو كانت الحبال ممدودة للغريق الذي يتلهف لقشة، وتبقى الحبال تنوس باحثة عن يديك الباحثتين عن أوتاد أخرى، عن أشرعة أخرى أكثر مناعة، وأصالة ووفاء..

عليك أن تستمر حتى تبقى المفاضلة بين الشر والخير قائمة، وبين الصالح والطالح مسوّغة، وبين اللازم حقاً والضروري لغاية خاصة، ممكنة..

أو بالأصح، حتى يبقى للشر اسمه، وللغلط معناه؛ لأن غيابك وأمثالك يعني غياب المقارنة، وبالتالي سيادة اللون الواحد، اللون الذي يتكاثر على امتداد اللوحة، اللون الذي لن يفيد في شيء حين يسود، قولُكَ: هذا باهت أو ناصع؛ فهو لون مشرع ومعروف، مقبول بل مطلوب، وتصبح المنافسة بالتالي على نظافة لمعان الثوب الذي سيتمسح به، ومقدار الطأطأة وقرب الرأس من الأرض، وشدة الموافقة وقوتها وثمنها على جواز العبور.

عليك أن تتحمل كل التبعات لهذا البقاء؛ بدءاً من الصفات الساخرة، والألقاب المعيّرة، مروراً بالمرغبات والمشهيات، وصولاً إلى الاتهامات الملفقة، والادعاءات الكاذبة المغلفة جيداً على أمل أن تودي بك إلى الدرك المهمل والمنسي؛ حيث لا تجد مؤنساً أو نصيراً.

هل فوجئت بهذا الكمين الجديد؟!

إذا كان ذلك قد حصل، فهذا يعني بؤس رؤياك، وشح قدرتك على الحدس والتخمين، وافتقار إفادتك مما مضى.. بالتأكيد أنت لم تفاجأ، فالحال بادية للعيان؛ بل حتى من ليس له عيون، يستطيع أن يدرك عمق الكارثة من ارتجاجات تحدث في الباطن، وتظهر على السطح اضطرابات يلتقطها من لا تزال لديه قدرة على الإحساس.

الأمر لا يحتاج إلى بعد نظر أو شدة إمعان، ومن لا يستطيع أن يرى من الغربال فالأعمى خير منه!

إذن ليس في الأمر مفاجأة ولا نشاز، ولا خروج عن المألوف؛ بل كل شيء متوقع ومحسوب حسابه. وهذا لا يعني عدم الانزعاج، أو عدم الإحساس بالقهر، والغبن، وعدم الراحة، خاصة لمن هم من أمثالك.

ولكن المصيبة التي لا تقتلك تزيدك قوة، وما عليك سوى معاودة الوقوف، ومتابعة المشي الواثق والرأس المرفوع، الذي لا يحتاج إلى سند خارجي؛ بل إن دعائمه من الداخل المحصن، هذا الذي لا يملكه الكثيرون. وعليك أن تظل في الواجهة حتى لو تكاثرت وتكسرت النصال على النصال..!

ما يشبه الرجاء!

هذا قدرك، وهذا أنت..!

السندان والشماعة والشمعة والترس.. والرمح أيضاً.

لاختراقاتك الأولى أكثر من معنى، ولعبورك الأنفاق والسراديب أكثر من رمز، ولصمودك المعنى كل المعنى..

أنت الأول في الصف، والكبير في البيت، والسباق إلى الوظيفة؛ كنت العبرة كل العبرة، والقيمة كل القيمة:

ادرسوا يا أخوتي وأنا معكم، سأترك ما يحق لي من فروع جامعية لها المستقبل والجاه والمال.. وسأنسحب إلى مورد قريب يقوت.. أما أنتم فتابعوا، وحصلوا، وسجلوا الفروع التي تستطيعون وترغبون، اعبروا فالطريق معبدة، أو هي أقل وعورة. سيروا ونافسوا على الإدارات والمسؤوليات والمكاتب، الأقسام والشعب والدوائر، العمارات والسيارات والمقاسم..

ودعوا لي هدوئي لأعيش، وقناعتي لأبقى..

أنتم تستحقون، كما كنت أستحق من دون شك، مع فارق الزمن الذي كان يمكن أن يجعلني شيئاً مختلفاً..

كنت بديل الأب الذي كبر، وها أنتم تكبرون.. ولا أكبر، تستلمون تستفيدون، تعمرون.. تبستنون.. لا بأس؛ هذا شأن قناعتكم، ونضوجكم ووعيكم. لكن الذي ليس من شأنكم وحقوقكم، هو أن تتناولوني بصيغكم الجديدة، بأفكاركم المستجدة، بأفعالكم التي لا مسوّغ لها..

أرضى بما ينز من موردي، وما يبل ريقي.. وما يكفي أولادي عناء الحاجة والتقصير ومواربة الأحلام.

لقد حققت مستقبلي بكم، ومكانتي بمواقعكم، وإرضاء غروري بمسؤولياتكم، وانشغال الناس بالحديث عنكم.

أنا لا أطلب شيئاً مماثلاً؛ فهذا لا يليق بسجلات الشهادات، وبكرامتي؛ أنا لا أطلب منّة أو هبة، لا أرجو منكم العودة من حيث أتيتم؛ فهذا ليس هيناً، ولا ذا جدوى، وليس من المعقول أن تقفوا على الأطلال وتنشدوا القصائد المؤثرة؛ فهذا لا يفيد، وليس مسوّغاً أن تعيشوا في الماضي. أريد منكم أن تكونوا للحاضر والمستقبل، أن تكونوا لائقين بشروط الحياة المعقدة، ومستعدين لفهم شاراتها الضوئية، والعبور الآمن..

ما أرجوه منكم فقط، هو أن لا تجعلوني أشعر أن ثقتي لم تكن في محلها، أن لا تجعلوا اسمي يتغبر من مطاردتكم، ولا صورتي تشوه من خلال صوركم، ولا تجعلوا أولادي ــ وقد تعبت في إقناعهم ــ يأسفون لأنهم لم يولدوا لأهل مثلكم..!

أنا أحب الوفاء، وأتمناه لمن أحب، لكني لا أطلب منكم أن تقفوا لي باحترام، وترفعوا لي التحية مطأطئين رؤوسكم تبجيلاً واعترافاً بالجميل؛ فأنا أحسست في ما

مضى، وأحس الآن، أن ما قمت به واجب أو قدر، ولكن هذا لا يعني أنني كنت جباناً، أو خجولاً، أو متردداً أبداً..

بل إن قرار التضحية هو القرار الجريء، ومبدأ الصمود في وجه المغريات هو القرار الصعب. هذه هي الحقيقة التي أتمنى أن تعرفوها وتقدروها، وأن لا تتركوا لحواشيكم أن يثرثروا بغير هذا، أو أن يشفقوا على حالي..

فأخشى ما أخشاه أن يأتي زمن تكون الشفقة على أمثالكم مطلباً صعب المنال...

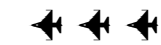

ثقافة الخير

الأجمل من الخير الأمل به، والتبشير بحدوثه.

والأخطر من الشرّ الاستسلام لوسواسه، والانهزام أمام سلطانه، حتى قبل أن يحلّ.

وتبرز أمام هذا وذاك أهمية الثقافة المتعلقة بالأمر، والمحيط الذي يدور فيه، والأفكار المتداولة حوله، والأمثلة التي يمكن أن تحتذى إيجاباً أو سلباً، وكثافتها وتأثيرها وحضورها. وخاصة ما يتعلق بالسلوك الناجم عن سطوة وسلطة واقتدار، وغالباً ما يكون في الاتجاه الغلط؛ حيث تشوّش الرؤى، وتعكّر اللوحة، وتختلط أو تستبدل معايير التقويم، حتى تكاد تغيب رموز الخير والعطاء الذي لا ينتظر ثمناً مادياً أو يطلبه، والمعروف غير المأجور إلا بمثله؛ ناهيك عن محاولة تكريسه وتسويغه على حساب الإضاءات التي تحدث، أو يمكن أن تحدث. فحين يدور على الأسماع خبر رشوة، أو تطوف رائحة فساد، تتحرك آراء مثل: هل الفاعل وحده؟! أو: حلال على الشاطر! أو: غداً يدفع الذي فيه النصيب، ويخرج مثل الشعرة من العجين! أو: الآن أحسّوا به بعد عمر كان فيه يسود ويعربد؟!

وحين يذكر أحد العصاميين الذين يحاربون الفساد ورموزه وإغراءاته، تسمع من يقول: درويش! أو: مسكين! يظن أنه قادر على إصلاحها لوحده؛ غداً يصبح مثل غيره. وإذا لم يرد ذلك، لن تسخن الكرسي تحته!

والمقصود من هذا كله التسويغ للمرتكبين، وتمرير المزيد من الجرائر، وإرضاء الغرائز التي يمكن أن تلحّ على الناس، بما ليس مشروعاً. وتحفيز الكثيرين على الارتماء في الإثم، كي يصبح الخطأ مستساغاً لدى الكثيرين، وتسهل عمليات الارتكاب التي تغلب على مجتمع ما، وتسود معاني الكسب من دون جهد، ومن دون حق. وتكثر مظاهر الابتزاز والسمسرة، ويضيع الصالح بالطالح. ويصبح القول للسفهاء والفاشلين، ويحاصر أصحاب الكفاءات والأنفة في مواقع معزولة، وتغيب المبادرات الخلاقة في ظل هيمنة الفاشلين والمحدودين ثقافة وأخلاقاً ورؤيا.

على الرغم من كل ذلك؛ فما زلت أومن أن الناس جميعاً يعرفون الخير من الشر، ويميزون بين المرتكب والمترفع، ويحترمون النظيف الشريف حتى لو كان ذلك بقلوبهم. وحتى لو يبالغون /بعضهم/ في التمسح برداء (السمين)، وإلقاء أنفسهم أمامه تحية له، أو خوفاً وطاعة وزلفى ودناءة.

وحين يجدّ الجدّ، وينفرد المرء مع نفسه، ويترك الأمر له دونما ضغط أو توجيه أو وصاية، سيضع يده على ضميره، حتى لو كان منوماً لفترة طويلة، ويشهد بالحق؛ سواء أكان ذلك عبر زفرة ألم، أو صحوة اعتراف، أو صرخة انتفاض، أو شهقة ندم، أو رغبة واعية، أو قناعة في ورقة اقتراع حرّ.

ما زلت أقول إن في أنفسنا الكثير مما يلزم ويصلح لهذا الزمن، كي يغدو أنصع. وإن في قلوبنا قطرات قانية تنبض بالصدق، وتعرف طريقها إلى المواقع الصحيحة التي تنتظرها حاملة كل معاني الدفء الإنساني.

ما زلت أراهن على مناطق الخير والإشراق في النفس، برغم الإرهاق من الجري أمام الخطيئة، أو وراء الضوء المنبعث من جهات عديدة.

ما زلت مقتنعاً بأن في محاولة الإنجاز الخيّر خيراً، وأن الحقّ لا يموت، رغم مظاهر القوة التي تقاومه، وتحاول طمس معالمه، وسيادة مفاهيم الباطل والجبن والخذلان والانهزام. يحدث ذلك في النفس، كما في القرية الكونية، وحيث تكون الحياة التي نعرف. كان ذلك في الماضي، ويكون الآن، وستظل الحال قائمة في المستقبل، وعلى مختلف الأصعدة.

وسيبقى أناس يقولون الحق، ويقفون المواقف النبيلة، ويثمّنونها، وهم أوفياء للحظات الصادقة، التي تبتعد فيها المصالح الأنانية، والمعرفة المأجورة، وقرابة الدم الفاسد، لتحلّ محلها معايير التقويم الصحيح النابع من وعي ومعرفة وخبرة وسمعة وإمكانية، لتسود المشاعر الخيّرة، وتنسحب الأفكار المعاكسة لذلك مع أصحابها إلى الدرك المظلم الذي يليق بها!

نفحة هواء نظيف

في كل فصل من فصول الحياة، متسع لكائنات تعيش وتسود زمناً يختلف مقداره..

ويحدث أن تتغير الظروف، وتتبدل العناصر.. فيؤثر ذلك على صفات الكائنات وسلوكها؛ منها من ينكفئ وينعزل وربما يستسلم، ومنها من يتلاءم ويتكيف ويستمر، وكائنات أخرى تقاوم وتنتظر..

ليس هذا غريباً في تقويم الحياة الذي تقلّب صفحاته ببرود أو لهفة، بحيادية أو انفعال، وربما مأساوية..

إن عدم غرابته لا يخفف من مدى معاناة الكائنات المقاومة عن جوهر الحياة كما تفهمها، والمتمثل بالعيش الحرّ الكريم الطامح بعيداً عن التلوّن بألوان المستجدات، والتمسح بالأطراف التي تتبدل نتوءاتها ومرتسماتها، وتجنباً للتكور انسحاباً وانكفاءً.

وعدم التعجب من طقوس الحياة هذه وتلك، لا يعني بالضرورة الاقتناع بما يجري، والانصياع لمتطلباته، والانقياد للزومياته. ولا يعني أيضاً المكابرة والعناد والرفض المجاني.

إن معاناة الشجرة المتجذرة في العمق، المنطلقة إلى السماء، المكتنزة معرفة واطلاعاً وفهماً وتفهماً، ليست قليلة.. وهي حين تتناقص أترابها، وتنحني شبيهاتها، وتتقصف غصونها وأوراقها، يغلي النسغ في عروقها، وتتحفّز وسائل الدفاع عن النفس لديها، وتكتشف آليات جديدة للمقاومة، وتبتدع أخرى..

حتى لو اختصرتْ إلى هيكل أو سَمتْ إلى رمز، فلن يغير من معنى حقّها في العيش، وحقّها في البحث عن الوسائل التي تعيدها نضرة، وتكثر من النضارة في الهياكل الأخرى، في الجهات الأخرى التي تحمل – ستبقى تحمل ــ إمكانية الإشراق والانطلاق في أي وقت..

ليست مسألة الإيمان بالحقّ مجانية، وليست مسألة الاقتناع بالحق والضراوة في الدّفاع عنه هيّنة. ولم يكن الخير يوماً منعماً مقدماً على طبق من عذوبة وأمان، من دون جراحات الأشواك والسهام والآثام..

ليس الأمر نظرياً مملاً، لكنه واقع نعيشه كل يوم.. وفي كل خطوة أو قول أو حلم..

ببراءة، قال الطالب المجتهد لآخر كسول، يعاتبه لأنه لم يقدم له الإجابات جاهزة:

- بأي حقّ أعطيك ثمرة جهدي؟!
- الأستاذ لا يمانع!
- أنا لا أقبل!
- ولماذا تمتنع عن تقديم المعونة لمحتاج؟!
- هذه خيانة!!

هل في الأمر مبالغة؟!

لا أعتقد.. في جو طبيعي؛ لكن كثيرين يمكن أن يروا غير ذلك. وليس هذا شأنهم وحدهم!

ليت الأمور تأخذ مساراتها الحقيقية، وتنطبق مضامين الأشياء على مسمياتها!

عندئذٍ لا تصبح المساومة على الحقوق سلاماً، ولا الانقياد للقوة العمياء واقعية؛ حينئذ لا تغدو مسألة التغيير في المواقع تغييراً في القبعات، ولا قضية الاكتناز بالذهب والفضة شطارة..

آنئذٍ لا يصبح انتهاز المسؤولية للحصول على ما تيسر استفادة! وتكون المطالبة بالاستزادة مما لا يستحق، تستوجب التوقف والمساءلة والانشغال.

المراقب الذي يدير ظهره، والراصد الذي يغمض عينيه، والراغب بما لدى الآخرين، والطامع بالممتلكات العامة والخاصة، والمؤتمن الذي يدير سمعه وأشياء أخرى، و"القائمون عليها" الذين تتوزعهم نزوات ورغبات وغايات، تصرفهم عن الجهة الحق..

كل هؤلاء وأولئك، يجعلون البيئة ملوثة والهواء فاسداً، وتصبح معهم أمنية استنشاق نفحة هواء نظيف، ناهيك عن الماء والكلأ والكلام.. ليست من دون قلق!!

ساكن الطريق العامة

خطوات قليلة تفصلك عن باب بيتك، آن نزولك من السيارة العامة، وثوان معدودة كافية لإدخالك المستراح المأمول.

أي تطور هذا؟! وأي اختصار للوقت وتعب الوقوف المفتوح بانتظار سيارات المفرق، وأي ارتياح من فظاظة السائقين المقربين وحماقاتهم؟!

يمكنك أن تفرح وتبتهج وترفع رأسك عالياً، فقد صرت من سكان الطريق العامة، ولن يطلب منك أحد بعد الآن أن تحدد له موطنك أكثر، وهو يشرد أو ينقر على رأسه محاولاً التذكر، إن كان سمع باسم القرية/قريتك التي ذكرت، ثم يهز رأسه أفقياً علامة اليأس، ثم تضطر إلى تذكيره بالمفرق الذي تتفرع منه الطريق إليها من على الطريق العامة، فيعود إلى هز رأسه شاقولياً علامة التعرف، من دون أن يلقي بالاً إلى المسافة التي تبعدها قريتك عن ذلك المفرق، تلك التي تحاول تقصيرها تقرباً ورفعة!

لا يهم كيف صرت من سكان الطريق العامة، وأي قبو تسكن، ومن وماذا حولك؛ فالمهم أنك اهتديت إلى ذلك الهدف وتلك الغاية، بعد طول بحث ومسيرة أسئلة

وتنازلات عن متطلبات، وتجاوزات عن شروط؛ فكل شيء يهون أمام خروجك إلى الدوام قبل الزمن الذي تستغرقه السيارة أية سيارة عابرة للوصول من المفرق إلى المدينة، ووصولك بعد مقدار الزمن ذاته لدى خروجك من الدائرة، من دون أن يكون هناك وقت مستقطع مشرع على كل الاحتمالات.

تضاف إلى ذلك إمكانية ذهابك ـــ إن اضطررت ـــ في أية ساعة تريد وإلى أية جهة ترغب، ولا خوف من التأخر في أي مكان تسافر إليه؛ إذ يمكنك العودة حتى في أية ساعة متأخرة.

أنت لم تعد تضطر للخروج من دارك قبل موعدك المفروض بساعات، أو العودة قبل الغروب بساعات، ولست مضطراً لاستلطاف السائق الجلف ليحسب حسابك بمكان، أو لانتظارك لحظات، أو للموافقة على حمل أغراضك معك، أو ليخفف قليلاً من التأفف والحنق على الناس الذين لا يقدرون الآخرين وظروفهم، وأنت في غنى عن امتداح مهارته، وتبجيل طول باله، وتقريظ قبوله الخروج من دفء فراشه في الحالات الطارئة، وإن كان ذلك ليس كرم أخلاقٍ بحتاً أو بالمجان.

السائق الذي لم تكن تبخل عليه بإجابات وشروحات لم تفده في مراحل الدراسة الأولى، ولم تتردد في مساعدته ـ إن استطعت ـ حتى في قاعة الامتحان؛ فهل هو نادم على ما صار إليه، أم أنك أنت من يندم؟!

أم أن كلاً منكما راض بقسمته، فيحنق هو جهاراً على العلم الذي لا يرفع من كان صغيراً بالأصل. وتشكو أنت ـــ بقلبك ـــ من الجهل الذي هو سبب كل البلايا..

أنت تستطيع الآن، بعد وصولك بدقائق، أن تتناول طعامك وتركن إلى النوم، لترتاح من أعباء الوظيفة ورعونة المراجعين وظروف جميعهم الاضطرارية، وعدم اقتناعهم بالدور أو بالهدوء.

ستنام الآن غير خائف من حشرية جارٍ أو (مَوْنَةِ) قريب.

أنت الآن في حلٍّ من فوضى الزيارات ورفع الكلفة، ستركن إلى الهدوء وتنام بعض الوقت، لتعود إلى تقليب أوراقك أو أفكارك...

لكنك لم تنم بعد: مضى وقت غير قليل محاولاً ذلك، ولم تستطع، الأصوات متواصلة؛ السيارات الخفيفة بمنبهاتها الحادة التي تحزّ على أعصابك، وتبقيها في حال التوتر والانشداد، والسيارات الثقيلة بهديرها ودويّها وأبواقها التي تقيمك وتقعدك،وأنت تظن أن هزة أرضية تقلقل الأبواب والنوافذ التي تهتز، والجدران والأرض التي تضطرب؛ الورشات المتعددة للإصلاحات التي لا تنتهي، المناشر والملاحم ومحلات التصويج والدهان وآلاتها.. الدراجات وتواتراتها المرعبة.

لا بأس، هذا وقت الحركة القصوى؛ لكن المساء لم يكن هادئاً..

درّاجات المشاوير والمراهَقات، سيارات العبور والزيارات..

في آخر الليل بضاعة تنزل، وبضاعة تحمل، جرارات الرمل وسيارات الخضار.. حتى أول الصباح..

أنـت لـم تـنم، جسـمك مهـدود، أعصـابك مشـدودة، تخاصمت مـع جيرانـك الركـاب، اشتبكت مـع مراجعيك، حنقت على زملائك في الدائرة نفسها..

في قريتك كنت تستطيع تفسير كل حركـة، وتعرف سبب كل صوت ومصدره وغايته.. كنت تستطيع أن تنام فـي الليـل علـى الأقـل.. وإن أفقـت فـي الصـباح فعلـى أصـوات العصـافير.. قريتـك بعيـدة عـن الحضـارة، عـن الطريـق العامـة.. وأنـت الآن علـى ضـفاف الحضـارة والطريق العامة.

ربحت وقتاً وراحة بال وسعة حركة..

وخسـرت هـدوءاً وراحـة أعصـاب وبسـاطة، ولهفـة جـارٍ ودفـء دمٍ قريـب.. فهـل نهنئـك أم ننتظـر، يـا سـاكن الطريق العامة؟!

متطوع !

في ساحة الشيخ ضاهر/ قلب اللاذقيـة، ومنذ عقود، كان يقف يومياً طوال ساعات النهار وبعض الليل، جوار الشارة المرورية الضوئية، وقرب بعض الأشجار العاليـة التي كانت، بثيابٍ مشعثة، وشعرٍ منفوش، ووجهٍ مبقع،

متوسط السن والطول، مهتماً كأكثر منظمي السير حرصاً وأمانة، يشير بيده إلى السيارات التي تقف كي تقف، وللسيارات التي تتابع السير أن تستمر في السير! كنا نمر به يومياً في طريقنا إلى الجامعة ومنها، وكم أثار سخرية من يراه، واستهزاء السائقين وتعليقاتهم واستفزازاتهم، وربما شفقة من يفكر في ما وراء الأمور، إنسانياً على الأقل.

كان يستوقف الكثيرين من المارة فضولاً واستغراباً، ثم قهقهة وعبوراً مع هز الرؤوس، والشكر لله ربما على النعم التي يملكونها. لم يكن الوحيد من أمثاله؛ بل كان وما يزال عشرات من المتسولين والمخبولين في شوارع المدينة، أية مدينة. لكنه كان متميزاً عنهم، غريباً على سلوكهم وعاداتهم بهوايته تلك، وبانشغاله الكبير وجديته وإصراره على متابعة الوقوف في الحر والمطر، وربما سعادته التي يمكن أن تظهر بوضوح؛ فأوامره منفذة؛ إذ توصّل بالغريزة، أو بنعمة لم يعرفها أصحاب النعم الأخرى، إلى حل للمعادلة الصعبة؛ فهو يشير إلى السيارة بعد أن تتوقف كي تتوقف، وبعد إقلاعها، أو في أثناء متابعتها العبور السريع، يأمرها أن تعبر..

كنا على مشارف الحياة، الحياة التي تبدو على مبعدة سنوات التخرج زاهيةً، تنفرش بساطاً مخضوضراً مليئاً بالدروب السالكة الآمنة بل الضاحكة المرحبة.

لم تكن أشكال الكثيرين منا لتختلف كثيراً عن شكله، سوى بانعدام الخروق الظاهرة، وتسريحة الشعر، والكتب والدفاتر التي نحتضنها، وكان يتم التغلب على الهموم اليومية الدراسية والمعاشية بتلويحات الأمل

وطيوف الأحلام، التي تصل حتى أعمق ركن في الغرف المظلمة التي كنا نسكن.

الحماسة موجودة، والاندفاع متوفر، والعاطفة مشبوبة، واللحظات مشحونة، والأيام مسرجة.

كان يشغلني منظره، وأستغرب سعادته ـــ لو كان غير مجنون ـــ في تلبّسه للحالة، وتوهمه النجاح والمسؤولية، وكنت أظن أن السعادة الحقيقية تكمن في أن تشير إلى السيارة التي تسرع بلا مسوغ كي تقف، فتقف، وإلى السيارة المتوقفة كي تسير.. فتتحرك، وليس الأمر صعباً.. هكذا فكرت، ولا مستحيلاً، هكذا توهمت.

وكم من الأشياء جرى التفكير فيها والتكهن بأن تغييرها ممكن، وكم من الأمور تم طرحها، ووضعت لها الأسباب والدوافع والحلول التي ستأتي..

والأهداف ستتحقق والرغبات ستشبع، والمشاريع سيتم إنجازها؛ كل ذلك رهن بانتهاء سنّي الدراسة، وابتداء الخطو الفاعل على الدروب المرسومة، أو التي سترسم بوعي جديد، وإرادة ناضجة، وقدرة على اكتناه الظروف والشروط، واستنتاج الناجع من الدواء أو الأفكار أو الأساليب.

بعد ذلك بسنين، مررت في تلك الساحة، لم تلفت نظري مستجداتها حتى حين رأيتها أول مرة؛ بل عاد إلى ذاكرتي ذلك المتطوع المروري بوقوفه وجديته وسعادته: وحوّم طيف ابتسامة..

وقبل أن تحط، وجدتني، وقد وقفت قريباً من موقع الشارة، حيث كان يمارس حياته، أنظر إلى حالي الحاضرة، وأفتش عن ظل تلك الحماسة وتلك الإرادة

وذاك الانفعال، وأفتش عبثاً عما تحقق من تلك الأحلام، وعن المؤهلات التي لم تنفع في بناء هيكل متين أو قامة متماسكة:

ما الأشياء التي استطعت إيقافها أو تغييرها أو التأثير فيها؛ وقد حاولت؟! هل الحق عليك لأنك لم تعرف (أصول) اللعبة؟!

أم على تلك (الأصول) التي لا تستقر على شكل أو لونٍ أو قانون؟

المياه تجري من تحتك وأمامك وحولك، غير عابئة بمشيئتك أو رغبتك، أو عذابك..

ترى، لو وقفت مكان ذلك الشخص، وفعلت كما كان يفعل، هل ستعرف البسمة طريقها إليك؟!

هل سيطوف بك إحساس السعادة؟!

تحين منك التفاتة، فتجد شخصاً يشبهك تماماً يقف مكانه، يحاول أن يفعل كما كان يفعل، يحاول تحريك يده المرفوعة.. لا يستطيع!

لماذا؟! هل اكتشفت أن هذا ليس يسيراً؟!

هل اكتشفت أن لهذا ثمناً باهظاً لا تستطيع تقديمه: أنك موافق على ما يجري، ومبارك له؟!

تسقط اليد المرفوعة، وتطير الابتسامة بعيداً.

الحقّ والثمن!!

تقول الحادثة الطريفة /المرة/ المأساوية: لاحظ سائق سيارة القرية البعيدة وجود قطعة خشبية كبيرة في عرض الطريق، فقال لمن كان إلى جانبه الذي روى الحادثة:

ــ انظر؛ هذه خشبة.. لا تظن أنها وقعت بالمصادفة من جرار؛ بل وضعها الحاسدون المبغضون المتآمرون عن قصد، وبنيّةٍ مبيّتة في طريقي، يريدون من هذا الفعل أن أمرّ عليها، فينفجر الدولاب، وتتعطل السيارة، ويشمتون!

وظل طوال المسافة الفاصلة بينه وبين الخشبة، يتحدث عن هذه المؤامرة الجديدة المكشوفة، والمؤامرات التي سبقت.. وأنه على علم بكل ما قاموا به من افتراءات واعتداءات، وما يخططون وينوون على فعله. رغم محاولاتهم الدائبة بإيهام الناس أنهم مظلومون. ولا يد لهم في كل ما يجري؛ "بل يتهمونني بأنني أقوم بذلك لإخفاء عجزي وضعفي، وعدم أهليتي وقدرتي على القيام بهذه المسؤولية، والسيطرة على سيارتي التي يتهمونها أيضاً بالضعف والتخلف عن ركب الحضارة، وعجزها هي الأخرى عن تأمين متطلبات السلامة والأمان.. ولا

يتورعون عن توجيه أصابع الاتهام إلى أهل بيتي الذين يريدون مني أن أقلع عن السواقة ليتسلموا المهمة بدلاً مني.. ولدقّ الأسافين بيني وبين أهلي، وتخريب العلاقة والقرابة والوئام.. ليتسنى لهم متابعة الصيد في المياه العكرة، والاستفادة من ظروف الشقاق ليكملوا ألاعيبهم ومؤامراتهم، ويحققوا أهدافهم الشريرة.." واستفاض في الكلام، حتى مرت السيارة فوق الخشبة، وانفجر الدولاب!

تظل هذه الحادثة ماثلة أمامي، كلما استمعت إلى الإعلام العربي في معظمه، وإلى الكثيرين من المسؤولين العرب في اجتماعاتهم ومؤتمراتهم الصحفية وبياناتهم.. في جميع المناسبات، وفي كل المنعطفات الخطيرة المتكاثرة في تاريخ أمتنا، وفي كل مشهد جديد أو فصل مستجد من مؤامرة مستمرة، وكل موقف متكرر من وقوف على بوابات الهزائم أو ركام التهديم وأشلاء الضحايا..

فيؤكدون أن المؤامرة مستمرة، ونؤكد أن هذا برهان جديد على ما يخطط له الكيان الصهيوني والدوائر الاستعمارية، وما يتضمنه المشروع الاستيطاني المدمر، وما يتطلبه الواقع والظرف منا من حذر وحيطة وانتباه لمنع الاختراقات التي تتكرر، وتنذر بكارثة أو زلزال أو مصير أسود لن ينجو منه أحد. وكأن الأمر يحتاج إلى مزيد من البراهين، أو أن للقضية فصولاً غامضة، وتفاصيل مبهمة، أو كأن الفاعل مجهول، أو أن الوقائع المستمرة من أكثر من نصف قرن، لا تكفي للإدانة أو الشرح والتعليل...

في الوقت الذي لم يجفَّ فيه مسيل الدماء، وصدى الآهات لا ينقطع، ونداء المنكوبين لا ينوس، واستغاثات المحتضرين لا تنتهي..

لكأني بنا نقوم بكل هذا حتى نشغل الوقت والفضاء بالضجيج الذي يفقد البصيرة، فتتوه المقاصد عن مسؤولية كل منا في البحث عن فعل، لا البرهان على جريمة، والتخطيط لإنجاز، لا التحضير لمناحةٍ جديدة، والقفز إلى الأمام خطوة واحدة، لا الرقص تحت النعوش أو على المقابر..

شيء غريب فعلاً أن تجد نفسك في كل مرة شاهداً، وبعد حين متهماً ثم ضحية، وأنت تنشغل في البحث عن دفاع خطابي منمق!

شيء مرير أن يتبجح الآخرون بنيتهم، وقرارهم بالهجوم والاحتلال والقصف واختيار الضحايا من دون احترام للحدود والحقوق والعهود.. ويقومون بكل ما يؤكد هذه النوايا والتصريحات، وننشغل بكون هذه العبارة يمكن ألا تكون في صالحنا أمام الرأي العام العالمي.

يقومون بشتى أنواع الإرهاب وأساليبه المنقولة عبر جهات الدنيا وفي عز العلن.. وتقبع في زاوية مظلمة، ينذُّ عنك كلام خجل مدافعاً عن إرهابك المزعوم، لا ترفع الصوت كيلا يضاف هذا الفعل، حتى لو كان آهة متوجعة، إلى جرائم الإرهاب التي تستحق عليها تجييش العالم ومؤسسات الإنصاف الدولية (مجلس الأمن ولجانه و...) لتأديبك وإعادتك إلى حظيرة الصواب!

لا يختلفون على الفعل. ونجهد في الاختلاف على اللفظ والتوصيف.

ليس الحق في حاجة إلى تأكيده؛ بل إلى مدافع عنه.

لم يكن الباطل يوماً يعبأ بالألفاظ والعقود والمواثيق والمعاهدات والمؤسسات؛ بل يخاف من فعل مواجه، ويحسب حساب الفاعلين حتى في قول أو دعوة.

ليست الغاية إضافة خطبة أو منادمة أو ورقة نعي تحضر كل يوم لضحية جديدة، ولا شتيمة تنهال على النفوس، لتزيد في مواتها أو تأكيد عجزها.. بل أن تترك الأقوال جميعها، ونوقف مناسبات الكلام كلها.. وألوانه.. ويتم التوجه إلى فعل حقيقي، لا يعدمه من يريد، ولا يقصر عنه من يرغب، ولا يتوه عن دروبه من ينذر..

وفي تاريخنا العربي الماضي والحاضر أضواء ومشاعل يمكن؛ بل يجب تأكيدها والحذو حذوها.. الأمر في غاية البساطة.. الحق واضح ومعروف ومقر ومعترف به، وطريقه واضحة وجلية، وهي بالتأكيد ليست مفروشة بالورود والقصائد والخطب، لكن بأشياء أخرى أغلى وأثمن!

يا بحر يا..

العبور يحاذيه، وهو يبتعد، تحجبه عن الطريق البحرية أبنية تتكاثف وتتعالى باطراد: مقاهي وشاليهات وقصوراً ومزارع.. فلا يبدو منه سوى زرقةٍ قاتمة وعباب رمادي ولوحة جافة. صحيح أنه لم يكن بيننا الكثير مما يؤسف على غيابه؛ ولكن ربما كان يمكن أن تكون مثل هذه العلاقة، لو أن العبور إليه ممكن، ولقاءه محتمل. لكن الشاطئ مشغول، ومنشغل، ونحن نبتعد عن أطراف حدوده المستحيلة.

كنت أحلم أن لي فيه حصة يمكن أن أطالب بها في أي وقت، وأن لي إرثاً لا يسقط بالتقادم؛ وحين كان يقال لنا في بعض المحافظات (المحرومة) منه: هنيئاً لكم بالبحر! كنت أضحك مرّتين؛ مرة من نفسي لافتقادي هذا الكنز، ومرة على نفسي، لأن هناك من يظن أننا قريبان متواشجان متفاهمان..

وأتساءل الآن: هل فات زمن اللقاء؟!

إذا كانت الحدود العامة مسوَّرةً بالأملاك الخاصة، والبحر عام وشامل، والأطراف الرملية صارت موطئاً لأقدام طرية وأجساد ناعمة؛ فابتعدت عنها الأقدام الخشنة التي لم تعد لها نافذة، سوى تلك المدججة بالصخور الناتئة، والمزروعة بالحصى القاسية، المسكونة بالدوارات المخيفة، تُرى.. ألهذا ينخطف الضحايا منها وإليها؟!

ماذا يفعل الذين لا يستطيعون دخول الممتلكات الخاصة البحرية؟!

أو الذين لا يملكون ما يخولهم دخول المقاصف (العامة) البحرية؟! هؤلاء وأولئك الذين يحبون البحر،

ويشتهون التملح بمائه، والارتماء في أحضانه الفسيحة، والانطلاق مع شساعته؛ وفوق هذا وذاك، الذين يرغبون بالمغامرة والإحساس بالمسؤولية في مواجهة مياه مالحة قاتمة عميقة، وأمواج متخاطفة متتابعة متعالية، فيضيع ما عُلم عن البحر، ويتضاءل ما أُنجز من خبرة وتعارف وتجارب. ويصبح كل شيء – من جديد – عرضة للخطر القاتل!

لكن الأحوال تبعدنا عن هذا العالم الغريب العجيب، فيبقى فريداً مرغوباً بعيداً عن الملمس أو الاقتراب أو حتى الرؤية!

وتبقى خبرتنا المائية محدودة، لا تكاد تتجاوز مغامراتنا الصبيانية في الأنهار والمسيلات الشتوية، التي كانت تستقبل أجسادنا الفتية بعد انزلاقات خطرة من على الصخور المحيطة المغطاة ببقايا أشنيات وطحالب، فتحول دون تماسكٍ مطلوب، وتختصر التردد بين النزول إلى الماء أو البقاء على الحافة المنحدرة. وكان النهر غداراً في كثير من الأحيان؛ حيث تضيع الدوارات تحت الصخور أو قرب شجيرات ملتفة متكاثفة، تلك التي يمكن أن يكون التعلق بها أو بجذورها الممتدة عميقاً في الضفة الرخوة، السبيل إلى الهلاك المحتوم.

كان هذا أيام كان البحر بعيداً، نراه ونستدل عليه من فرجات بين الذرى التي تتسلق القرى سفوحها.. وكان يقال لنا على سبيل الترغيب، سنأخذكم إلى البحر، وكان دارجاً القول: أبعد من هنا إلى البحر، رغم أننا ساحليون؛ لكن البحر مازال بعيداً، اقتربنا وابتعد، المسافة بيننا؛ ليست شيئاً في أبعاد القرية الصغيرة التي صار إليها العالم، لكنها تقاس بأمور أخرى، وربما سنقف على الذرا

ذاتها لندل أولادنا إلى البحر عينه، من خلال فرجات يغيب قسم منها أيضاً.. وربما سيضحك علينا كثيرون ممن كانوا بعيدين جداً عن البحر، وسيُضحك من تسميتنا بالساحليين، وانتماءاتنا البحرية التي يزداد الشك فيها يوماً بعد يوم!

لم يقل.. لكنه فعل!

ما الذي جنيتُه يا سيدي حتى تفعل بي ما فعلت؟!

أعلم أنك جبار ومقتدر، وأن الولوج في مملكتك الواسعة المعقدة ليس يسيراً. ولكنني كنت أراهن على أمومتك، وعلى جاهليتنا وبدائيتنا المشتركة. كنتُ أراهن على أن الدم لن يصير ماءً مالحاً على الأقل. آه لو تعلم كم تحملتُ من مشاق الانتظار والرفض والإهمال. فأنت مسوّرٌ بالمحبين المخلصين الأوفياء! الذين لا يتركون للحمقى أو الأدعياء أمثالي الفرصة للدنوّ من عتبات أمواجك، أو الانتعاش برطوبتك، أو تعكير جبهتك المزرقة.

كم تمنيت لو تتذكر ــ لو يتركونك تتذكر ــ ملمس أقدامنا الحافية وأجسادنا المسمرّة.. آه لو يتركون لك الفرصة لاسترجاع مشهد الخروج الأول من لدنك، وصدى الشهقة الأولى.. مدفوعاً بقوة الأمر، ولوحة المغامرة، ولذة الكشف.. مكتنزاً برحيق الأعماق ودفء الرحم الأولى، مشدوداً بخيوط الضوء وأزيز الوقت، ونشوة السلطان..

آه لو يتركوننا وحدنا لمرة فقط، لو تنسى أن تستمع إليهم؛ لماذا يخافون مثل هذا اللقاء؟!

إنهم لا يخافونني، أنا الواضح الصريح الأعزل الهش، العالق من رأسي وقدمي بما كنّا اكتشفناه معاً وعشنا ولادته،ولذّة ابتداعه.. ولا يخافونك أنت؛ لا تتعجب، ولا تندهش، ولا تدفع أمواجك أكثر، هم يدّعون الخوف من جبروتك، يسلكون كل السبل الممكنة، ويختلقون الأسباب والظروف لامتطاء متنك، والخوض في أعماقك ونهب ثرواتك، وتبنّي مقدّراتك وإمكانياتك..

إنهم يحايلونك، يقبّلون أطرافك، ويَدْعون (.....).

حتى هذا التجميل الذي زينوه لك.. هذه الشواطئ المرسومة بإتقان، الخيم والأضواء والموانئ ليست لك، إنها لهم، لمراكبهم، لغنائمهم، لسلطانهم، لأوقاتهم، ولمتعهم التي لا تنتهي..

إنهم لا يخافونك وحيداً، ولا يخافونني منفرداً.. لكن يخافون لقاءنا معاً!! حاولت اللقاء مرات، حاولتُ مخاطبتك من بعيد، لم تسمع.. قدمت أعداداً لا تحصى من طلبات المقابلة، عاد بعضها بعدم الموافقة للانشغال، وبعض منها رُدَّ لبيان الأسباب والدوافع.. وتحديد المطلوب!

كيف يمكنني أن أكتب في الطلب ما أريد وما أتمنّى؟! وهو سيمرّ من بين أيديهم، من تحت عدساتهم المكبرة التي تشتمُّ رائحة ما يؤذي.. ليس ما يؤذيك أنت؛ بل ما يؤذي وجودهم ومكتسباتهم.

قلت لهم مرات: أريد فرصة، ولو لبرهة، لا أريد اللقاء بالواسطة، أريد لقاءه وجهاً لوجه..

قولوا له إني أريد مقابلته، اذكروني أمامه، صِفوني له، وهو سيذكرني. وقالوا: من أنت حتى يبلغ بك الطموح كل هذه الدرجة؟!

قالوا،وقالوا..

ما الذي فعلتهُ حتى تعاملني بمثل هذه المعاملة؟!

أنا عاتبٌ عليك، من أجلك وليس من أجلي، تركتَهم يتحدثون باسمك، يتصرفون بصيتك، يوافقون ويرفضون، يشيلون ويحطون، يرفعون ويخفضون..

أنا عاتبٌ عليك، لأنك يا سيدي لم تحسن الاختيار..

هذا ما قلته فقط، هذا ما تفوّه به كل مسام من مساماتي المتحفّزة، هذا ما نطقت به أعضائي، كل أعضائي.

دفعتَني في المرة الأولى، تذكرتُ دفعاتهم، بلعتُها مالحة. أعدتُ الكرّة أملاً أن تتذكر طعم الخطو البكر، لطمتَني بقوّة، وقعتُ في الماء، حلمتُ: الآن ستتعرف الجسد/الطفل، سيحن الرحم إلى رعشاته.. لم تلن ملامحك، ولم يتمدد عبوسك، قمتُ من جديد، وحاولت تقديم نفسي بطريقة جديدة، سأصرخ.. سأصرح بمرارتي، سأعبر عن حزني وخيبتي بهم وبِكَ.. لكنك أتبعتَ اللطمات برفسات متلاحقة، حاصرني الملح، تشبثتُ بالزبد الأبيض، الذي سرعان ما تلاشى، وتركني أغوص..

أحسست بيديك في رقبتي، حتى هذه ليست طريقتك.. إنها طريقتهم. الرقبة يا بحر؟! حتى أنت يا بحر؟!

حاولت الصراخ من جديد، تبعثر الصدى المخنوق،
وبرق الملح.. حتى أنت يا بحر؟!
هذه المرة لم يقل البحر شيئاً.. لكنه فعل!!

من شرّ البليّة

لـيس مـن يضـحك فرِحـاً بالضـرورة، ولـيس البكـاء وحده تعبيراً عن الحزن..

صحيح أن الأصل في الإنسان البكاء؛ بـه يبدأ مشوار الحيـاة، وعلـى أصـدائه يـذهب. ولا يـتعلم الكـائن ــ الـذي سيصـبح عـاقلاً! ــ الضـحك إلا بعـد إطلالتـه علـى الـدنيا بوقت، وبعد خطوه في درب الحياة مسافة تكفي، ربمـا، من دون وعي، لاكتشاف العبث والخيبة!

صــحيح أن للضــحك فوائــد، مــن أهمهــا تحريــك عضلات الوجه الكثيرة؛ لكن الصحيح أيضاً أن له بعضـاً مـن صـفات التوريـة أو النفـاق أو الخـداع، حـين يكـون انعكاسـاً لأمـور غاصـة، أو حاجـة شـائكة.. ولا يسـتطيع الآخر أن يفهم مـا وراء هـذا الضـحك. أو يحـاول تجاهل ذلك، أو تجنّبه..

تلـك مسـألة تتعلـق بالكـائن ذاتـه، وبالحالـة والموقـف والملامح، والقدرة على التعبير..

*

هناك من يضحك سخرية، ويقهقه استنكاراً، ويبتسم حيرة وأملاً وانتظاراً..

ومن الضحك ما لا معنى له؛ ضحك مجاني محايد فارغ من أي مضمون، وضحك مجنون لا يستند إلى مرجع أو أساس أو سبب، وليس بالضرورة من قلة الأدب؛ بل ربما كان ناجماً عن ضعف المشاعر أو المسوّغات أو الأحاسيس أو الملامح أو القناعات أو اليقين..

وقد تضحك من نفسك إذا تصرفت بما يكشف لك المفارقة بين ما كنت مؤملاً به، وما تبين لك من وقائع، وقد تضحك على نفسك فَتَعِدها بما يريح ويفرج، ويجعل في القادم من الأيام سعادة، وأنت تعلم علم اليقين أن ذلك بعيد بعيد..

ناهيك عن الضحك الناتج عن شرّ البلية، وما أدراك ما شر البلية!

فقد يكون من شرّ البلية أن تخضع لأمرٍ بليدٍ، أو تنصاع لقرارٍ متخلفٍ، أو تكلف بعمل لا تعرف عنه شيئاً، وتعرف عن سواه الكثير، أو تطالب بالفصل في معضلة لست على بيّنة من كل تفاصيلها، أو يطلب منك تنفيذ قانون ينتهكه الجميع سراً وعلانية، أو تحاسب على فعل صغير، في الوقت الذي يفعل سواك أضعاف أضعافه من دون أن يرفّ جفن، أو تشير إصبع، أو يتحرك لسان.

ومن شرّ البلية أن تغدو جاهلاً، لأنك لا تشارك في الغلط، وغافلاً لأنك لا تعرف كيف تؤخذ الحصة، ومن أين يستخرج الدسم!

ومن شرّ البلية أن يتراكض الأدباء وراء الأمسيات والمشاركات، ويتسابق المنظمون لاقتناص أسماء بعينها،

لأنها تؤمن لهم الستر المناسب، والمسير الآمن، وحسن العاقبة.

وماذا يمكن تسمية الذين (يغرفون من بحرك، ويفاخرون بجدولهم)؟! ويهرعون للظهور بأية هيئة، وأي شكل، وفي أي موقع وعلى أي منبر.. ألا يدفعونك للضحك المرّ؟! ولا سيما إذا وجدوا من يلبي لهم طموحاتهم (الكبرى)؟! وما هو الصدى الذي يستدعيه لديك شحّ رجل يتبوأ مهمة تحتاج إلى اكتناز وغنى؟! ومن الذين سيقربهم، أو يتقربون منه؟! ما مدى ثقافتهم؟! وما مدى قدرتهم على العطاء، إذا كان المحدود معنوياً وثقة وإمكانياتٍ مثالَهم وقدوتَهم ووليّهم، وربما ملهمهم؟!

من الممكن إذاً أن يكون الضحك بديلاً عن البكاء، فهو ضحك جارح تخرج أصداؤه من تفتق جراح النفس والمشاعر، وتمزّق عرى الصبر والانتظار؛ ومن الضحك ما سرعان ما يتحول إلى كمد وكبت واحتقان، يمكن أن ينفجر صراخاً في أيّ وجه.

ليس الضحك للهزء والهذر والترفيه فقط؛ بل هو عجز عن البكاء لشدة الألم، وعجز عن النواح لقسوة المرارة، وعجز عن أي تعبير آخر، لأن المشهد غريب والموقف عجيب.

أترانا نضحك مما نرى ونسمع ونحس من شرّ البلية؟! ونردد مع الموال المصري:" أضحك من الغُلب لكنّ البكا غالب على حالي"!!

ليست شكوى!

أتمنى لو أني تزوجت راعياً في القرية، وعندي بقرات أعتني بها، وأطفال أتشاجر معهم، وجارات أثرثر وإياهن!

تعلمتُ، شهادتي عليا، عملي جيد، ودخلي أيضاً..

الكثيرات من أترابي تزوجن، بعد أن خرجن أو أخرجن من المدارس، ضحكت منهن وعليهن.. وأخريات حصلن على شهادات متوسطة، فكنَّ الأكثر طلباً للوظيفة والزواج!

أنا لم أتزوج، العروض الأولى رفضتها لاستكمال الدراسة، والعروض التالية لم ترضِ أفكاري أو تشبع طموحي، والعروض الأخيرة.. أين العروض الأخيرة؟!

الذين لديهم شهادات توازي شهادتي أو تتجاوزها، ويكبرونني ــ تزوجوا، من بقي منهم ومن سافر... فأمامهم دائماً فرص الاختيار واسعة!

ولماذا أذكر هؤلاء؟! لأن الرجال قوامون على النساء، فيجب أن يكونوا أكثر تحصيلاً وأرجح فكراً وأكبر عمراً!

أما أنا، فمن أرتاح إلى أفكارهم، ومن يتفهمون حال المرأة المتعلمة، قليلون أو متزوجون! والآخرون التوافق معهم صعب!

هناك من يطالبني بالتنازل، التنازل عن ماذا؟! عن حقوقي في الفهم والمناقشة والعمل؟! عن قدراتي وإمكانياتي، وعقلي الذي لا يرضى أن يغمض؟! من يجرؤ على التقدم إلي إذن؟! هكذا يقولون!

وما ذنبي إذا لم يتقدموا؟! هل أتقدم أنا؟!

العمر يمضي والاحتمالات قلت، فالمحيط متقارب، ولا جديد في الأشخاص والأعمال والمشاريع!

أذهب إلى العمل وأعود إلى وحدتي، أو إلى واجباتي تجاه إخوتي أو أخواتي أو صديقاتي أو أقاربي.. واجبات التهاني والمواساة والمساعدة..

صرت أنفر من أية أفكار أو أقوال لتطوير منصبي، أو مهنتيP فهي تبعدني أكثر فأكثر عن نفسي، عن حقي وإمكانية أن يكون لي أسرة وأطفال! أطفال قد يسعدون بأن يكون لهم أم ذات سمعة حسنة.

السمعة الحسنة لامرأة وحيدة ليس من السهولة المحافظة عليها.. ففي كل حركة أو موقف أو حديث أو ضحكة ألف تفسير وتفسير!

زوجوني من كل من أعمل معهم، وزفوني إلى السائق والآذن والزميل والمدير، تعاميت عن الإشارات ذات المغزى، وتصاممت عن الثرثرة التي بلا معنى، والكلام الذي لا يرحم، وتعاليت عن كثير من الدعوات والسهرات و.. ولكنني لا أستطيع أن أتصامم عن صوت الحياة في داخلي، وأصوات أطفال مشتهاة تنادي (يا ماما).. ولا

أستطيع أن أتعامى عن أثر الزمان الذي يشاغب فوق وجهي، ويشاكسني في مفرق شعري.. وماذا أخفي لأخفي؟!

وكم يلزمني من القوة والجلد والصبر والعناد، لأستمر في الظهور بمظهري الجاد الواثق الصلب الطموح؟!

وهل أجرؤ على القبول بمن يجرؤ على التقدم إلي؟!

هذه ليست شكوى؛ فليس من حل أراه!

هذه ليست شكوى؛ فلمن أقدمها؟!

هذه ليست شكوى؛ فقد تفسر تفسيرات أقسى، وقد يضاف سوء فهم آخر، وتضاف أعذار أشد وقعاً من السهام التي لا تتكسر على السهام..

هذا بوح، أو همس أو أفكار وتساؤلات محشرجة.. ربما تكون قد ظهرت بصوت عالٍ!

فاعذروني!!

فواصل انتقالية

ما يميز الأيام الخريفية، أن المرء يحتار في توقع حال الطقس، مطراً أم صحواً، برداً أم شمساً، ليحضر نفسه بدنياً ونفسياً لما سيأتي، وتكثر المفاجآت التي تسبب إرباكات متنوعة.. هذه صفات المراحل الانتقالية. فالخريف رغم أنه فصل كامل، له من الأيام والشهور ما للصيف والشتاء، فإن أقسى ما يوصف به أنه ــ والربيع المتباهي بجماله وزينته ــ فصل انتقالي، إنه حالة عابرة بين حر الصيف وقرّ الشتاء، بين أريحية الصيف وانقباض الشتاء، بين فوضوية الصيف والتزام الشتاء..

وعلى الرغم من انتقالية الخريف، فإن له جمالياته الخاصة التي تأتي المفاجآت في مقدمتها أو عدم الانتظام، والقلقلة، والتكهن بما سيكون عليه الشتاء القادم، وما يتطلب من تحضيرات!

من صفات المراحل الانتقالية أيضاً أن لا شيء ثابت أو مستقر أو مضبوط أو نهائي؛ كل شيء ممكن الحدوث، قدراً أو واسطة، وكل حال ممكنة التغير من المرض إلى السلامة، ومن السلامة إلى البلاء..

وإذا ما نظرنا إلى مراحل حياتنا، فهل نجد فيها إلا مثل هذه الصفات: الحيرة والقلق والتكهن والانتظار؟!

هـل يوجـد فيهـا سـوى شـرذمة الأحـلام، ولَمْلَمَـةِ الممكنـات، وجرجـرة المفروضـات، وحلحلـة العثـرات، وبعثرة الأوقات؟!

لـيس عليـك إذاً أن تـدهش أو تصـدم أو تصـيبك "الجلطـة" أو "الفرحـة" عند كل منعطـف؛ إذ تنتهـي من الدراسـة وهمومهـا وآمالهـا والنجـاح ومتطلباتـه، لتبـدأ مراحـل همـوم الـدرب التـي ستسـلك، والوظيفـة التـي ستمتهن، بغض النظر عن هواياتك وميولك التي لا تغني ولا تسمن، ثم تبدأ بهمّ البيت الذي يبدأ ولا ينتهي.. بعدها تكون قد تنازلت عن شروط كثيرة في زوجة المستقبل، وما إن تستقر بينكما الحال ـ أو تحسب ذلك ـ حتى يأتي الأولاد براهنية متطلباتهم، واختلاف ميولهم وقدراتهم، وهموم صحتهم ودراستهم وحاجاتهم، آملاً أن تقدم لهم ما حرمت منه.. هل تستطيع؟! ومنتظراً أن يحققوا ما لم تسمح لك الظروف والإمكانيات والواقع بتحقيقه.. هل هذا ممكن؟!

بعد أن تحاول مساعدتهم في ابتناء بيوتهم، وتكوين أسرهم، وتكون قد بدأت مراحل انتقالية أخرى؛ الآخرة التي قد لا تمهل، حتى تؤمن لها السترة.. وعلى هذا، أليست حياتك مراحل انتقالية متتابعة؟!

صحيح أنك تشترك مع الكثيرين في ذلك، وهذا قد يعزي قليلاً؛ ولكن هذا لا يلغي الحقيقة، ولا يبعد الحال الضاغطة، ولا يمنع من أن أناساً لا يمرون بمثل هذه الانعطافات، ولا يعبرون مثل هذه المفازات، ولا يصرفون الوقت في هذه المؤملات؛ فقد أمنوا على حياتهم ـ يظنون ذلك ـ وأمّنوا مستقبل أولادهم وأولاد أولادهم، هؤلاء سيعيشون دون خضات، أو غصّات؛

يحسبون هذا ويحسب الكثيرون، ولست منهم؛ بل أعتقد أن غصّات أكبر، ومرارات أشد، وخيبات أفدح تنتظرهم..

المهم أن حساباً بسيطاً، يظهر أن حياتنا بمجملها، ومهما امتدت سنواتها، وطالت أعمارنا، ليست سوى فصول انتقالية!

مبالغة!

قال عليّ (ك) لرجل بالغ في مدحه، ويشك في حسن طويته:

"أنا دون ما تقول، وفوق ما في نفسك".

أسرد هذه الحكاية مدخلاً للحديث عن أمر يكاد يكون سمة أخرى من سمات هذا العصر، أقصد "المبالغة" التي تكاد تصبغ كل شيء..

ففي السلام اليومي مبالغة، وفي الكلام العادي مبالغة، في الحب مبالغة إلى درجة الموت "حباً"، وفي الكره مبالغة إلى درجة التراشق بكل الأسلحة التي تخبأ في أوقات الحب!

فكم من تحيات تكاد تغمرك بفيضها، وتقطع عليك الجهات، لا يصيبك في الواقع منها إلا القليل، وكم من المدائح تلقى فوق رأسك، لو أصابتك كلها لَشَجَّتْكَ؟! لكنها ـ لحسن الحظ ـ خلبية في معظمها.. وخاصة حين تكون مسؤولاً بأية درجة!

ولا يكاد الأمر يقتصر على مفردات الحياة العادية لقاءاتٍ وعملاً وعلاقات؛ بل يتجاوز ذلك إلى مستويات دولية.. في مصالحات عاجلة، تفتح الأبواب جميعها،

وتعلو الزغاريد والأغاني والمدائح، وفي خصامات مفاجئة، تغلق حتى المسامات، وتشرع الشتائم والسيوف.. وسواها! وأخطر ما في هذه القضية العالمية، حين توجه حراب الإعلام جميعها باتجاه ما للقوى الحاكمة العليا مصلحة في ترويجه أو تسويقه؛ "الإرهاب مثلاً"، وإغماض البصيرة والبصر عن أمور أفظع، وحقوق تغتال في عز الظهيرة؛ "حقوق الشعب الفلسطيني مثلاً".

إن ما يجعل الخطر قائماً والمشكلة بلا حل، هو أن المفاتيح بيد الأقوياء والأشرعة بيد الأقوياء، والأحكام بيد الأقوياء، وللضعفاء الرضا والقبول، وربما المبالغة في الطاعة والانصياع والشكر..

هل المبالغة عادة أم سياسة أم أيديولوجية؟!

أعرف زميلاً استلم منبراً ثقافياً ما، أصدر كتاباً إبداعياً، فانهمرت الدراسات التي تطري، والتعليقات التي تمتدح، نشر منها الكثير، وطوى الكثير. وحين ترك ذاك المنصب، وأصدر كتباً أخرى أهم، لم يلتفت إليها إلا القليلون، ومنهم من كان له معه ثأر!!

وهذا ليس سوى مثال بسيط، لكنه مقلق لأن الوسط ثقافي أدبي؛ فكيف تكون الحال إذن في الأوساط الأخرى، والمسؤوليات الأخرى، والحاجات الأخرى..

أحسب أننا في زمن نحتاج معه إلى تنزيلات في كل شيء، حتى نحصل على شيء قريب من الحقيقة. والتنزيلات أو الحسم "موضة" أخرى في هذا العصر، وهي تعبير صريح عن أن الشيء المعلن مبالغ في ثمنه، وهو لا يستحق حقيقةً ما يشاع عنه..

لأن المنطـق يقـول بـأن لا أحـد يجـري تنـزيلات ليخسر؛ بل ليرضى ـ مشكوراً ـ بربح أقل، يزداد بزيادة المبـاع، وإذا كانـت التنـزيلات موسـمية، وتحـدث فـي نهايات الفصول، حين يقل الطلب، فإن التنزيلات التي يفترض أن نجريها يجب أن تكون دائمة، وحيث يزداد الطلب، وفي معظم ما نسمع وما نرى.. وعلى الرغم من اتهامـات البـرود و"شـوفة الحـال"، والمبالغـات السـلبية الأخرى التي يمكن أن تطالك إن قمت بذلك، فإنها في تقديري أهون ألف مرة من الوهم أو التوهم، ومن جهد التصنع في المبادرة والتلقي، وعناء مواكبة تيار الزبد..

المشكلة التي يمكن أن تواجهك حين تقرر إجراء الحسم، هي في نسبة هذا الحسم التي قد تكون كبيرة إلى درجة مقلقة**!!**

✦ ✦ ✦

لماذا؟!

سؤال كبير يلوح في أفق شاحب، يطلع من ماض يتصدع، يقتحم جليد الحاضر، ويطوف في سماء الآتي، غمامة من الغبار والغموض والقلق.

لماذا؟!

كنت أعد الأيام وهي تدب بطيئة خاملة في حرارة صيف طويل، ويتطاول حتى يكاد لا ينتهي في انتظار المدرسة، وكان الصبر يكاد ينفد، حين تؤجَّل أسبوعاً أو أكثر؛ في حين أن قدوم المدرسة الآن أمر عادي عند أولاد اليوم؛ عادي إلى درجة قد يبدو فيها الأمر ليس جديراً بالاهتمام، إذا لم يكن مدعاة قلق وانزعاج!

صحيح أن المدرسة كانت حركة جديدة جديرة في بِرْكَةِ الأيام والشهور، وفي رتابة اللقاءات والتكرار والمحدودية، كانت انتقالاً من مكان إلى مكان، من قرية إلى قرية وربما إلى مدينة، نلاقي رفاقاً آخرين، ونسمع كلاماً آخر، ونتعرف ألعاباً أخرى، ونطلع على معارف جديدة ومعلومات مستجدة، كانت المدرسة المنبع الأساس والوحيد لها ربما.

كنا سنلتقي مع الأستاذ الذي نحب ونحترم، الأستاذ القادم من مكان آخر والمتحدث بلهجة أخرى.. أما الآن

فالمدرسة في القرية ذاتها، والرفاق أنفسهم أبناء الحارة، والأساتذة كذلك؛ لم تعد المدرسة الحركة المهمة والمنبع الأساس للمعلومات والمتعة والتعارف.. ففي البيت برامج تلفزيونية للأطفال تستمر ساعات، إضافة إلى المباريات المنقولة والمسلسلات المتعددة المتلاحقة، والصور الجاذبة، والإعلانات المثيرة، كلها أشياء تشارك في تربية الأطفال، وتساهم في إشغالهم حتى عن تحضير دروسهم ووظائفهم.

ليس هذا فقط؛ بل إن الحديث عن العلم وجدواه لم يعد جدياً أو ممتعاً أو مقنعاً.. فالأهل متعلمون على الأغلب، وهم قلقون منفعلون منشغلون، وربما محبطون، لذلك لا يرد في حديثهم ما يحض كثيراً على العلم، ولا يظهر الانفعال الصادق بذلك، كما كان يحدث لدى أهلنا غير المتعلمين؛ فقد كانت قضية التعلم ذروة القضايا، وأمنية لا تُضاهى ورغبة لا يُعلى عليها.. وكان المتعلم/ المثال حالاً تُشتهى ووظيفة ينظر إليها بكثير من الاعتزاز والفخر..

إنه واقع يستحق المتابعة والدراسة والاهتمام الجدي.. على المدرسة أن تكون أكثر إمتاعاً وجاذبية، عليها أن تكون ميداناً لنشاطات متنوعة، وبيدراً لمواهب تُكتشف وتُنمّى؛ يجب أن يعطى الجانب الموازي للعلم قدراً من التفكير والاهتمام والمتابعة، ويجب أن يكون ما فيها يشد انتباه الطالب، ويداعب مخيلته، ويراعي مشاعره وميوله ورغباته، وليس على حساب العلم والمعرفة؛ بل لتكريسها وتقديمها بشكل يسهل تمثله واستيعابه.

الأمـر مقلـق أن يجـد الطفـل أن البقـاء فـي البيـت أو الحـارة أجدى وأمتـع من الذهاب إلـى المدرسـة، ويصـبح حينئـذ أمـر الـذهاب إليهـا كابوسـاً يلاحـق الطالـب والأهل والأساتذة، ناهيك عن دوره ونشاطه وتحصيله فيها..

امتلاء

ألا تحسُّ أحياناً أنك ممتلئ حتى التخمة بأشياء لا تعرفها، ممتلئ إلى درجة أن أنفاسك تسري بصعوبة، ورغباتك معدومة حتى في أبسط إمكانياتك كائناً حياً؛ ناهيك عن كونك ناطقاً أو عاقلاً، أو تنتمي إلى النوع الأرقى؟!

امتلاء يصعب معه الكلام أو الطعام أو النشاط حتى الذهني.. فيلغى بالتالي أي تفكير بزيارة إلى أي مكان، لأن الرغبة بل القدرة حتى على سماع حديث أو متابعة حدث ليست باليسيرة. وتصعب الحال حين تكون مُزاراً؛ إذ عليك القيام بواجب الضيافة ترحيباً وحديثاً. وعليك ــ إمعاناً في التكريم ــ إيجاد الحديث الذي تتفق عليه مع زائرك بالحد الأدنى، وقد يدوم حديث الطقس طويلاً!

ويصعب الأمر أكثر حين يصبح مجرد تحمل كلمة أو حركة أمراً عصياً حتى من طفل ـ أتيت به إلى الدنيا ــ يحاول أن يعيش طفولته بصخب ناجمٍ عن حيويته ونشاطه، أو ضجيج خارج من التلفاز...

طفولتك كانت صاخبة، لكنها كانت مفتوحة على البراري والفضاءات، ومن ثم النوم الباكر بعد حكايا من الجدة أو الأم؛ كثيراً ما ينام أحدكما قبل أن تنتهي..

السؤال الذي لا يمل من الطرق على رأسك:

ـ لم هذه التخمة؟! ومن أين تأتي؟! وما العلاج لها؟! وتكاد تجزم أنك لست الوحيد؛ فأنت ترى ببساطة كيف يتغافل عن رؤيتك صديق لم تره منذ زمن، رغم تأكدك أنه رآك.. ولا تنزعج، لأنك واثق من أنه لا يكرهك، ولكن ـ مثلك تماماً ـ غير مستعد للكلام الذي لا طائل من ورائه، لا رغبة لديه ولا قدرة على تسخين مشاعر باردة ـ كما هي حالك أيضاً..

وأنت تعرف أن الذين يتأخرون في تأدية الواجب تجاهك زواجاً وولادة أو شفاء لا يضمرون لك السوء، ولكنهم يرجؤون ذلك حتى تتحسن أحوالهم النفسية (لأن الأحوال المادية لن تتحسن بطفرات، إلا لمن كان له حظ أو..!!) ويصبح بإمكانهم القيام بذا الواجب الذي ربما يمر موعده، ويُنسى بلا كبير أسى..

حين تلتقي بالأصدقاء، ولا مناص من المواجهة، يبدأ العتب وتأنيب النفس على التقصير (وكثير منه صادق)، رغم الحاجة الملحة إلى مثل هذه اللقاءات التي قد تُعلي من الحسّ الإنساني والشعور بالألفة والأمان؛ هذا الشعور الذي يكاد يضيع، وربما كان هذا ما يؤدي إلى امتلاء حتى مسامات الجلد، بما لا يفيد بأن إنسانية هذا الكائن الإنساني على درجة عالية وربما مقبولة أو قادرة على الإقناع.. ومدعاة للتفاؤل!!

تساؤلات مُرة

غابت قضية الاستنساخ عن الواجهة، وعادت من جديد إلى الكواليس، والمخابئ والمخابر المحمية من القيل والقال، والرفض والتأييد، وقيود الأخلاق ومنغصات القلق والرعب والانتظار..

واستطراداً لردود الأفعال الاستنساخية، وبعيداً عن المشاكل الإنسانية التي أثيرت، ويمكن أن تثار، ولن يتم الوقوف عندها حتماً؛ وبعيداً عن النوايا الخبيثة التي تتربص بالكائنات غير البرية، سأقف عند قضية من نوع آخر، قضية ذاتية الإشكالية وغير ذاتية النتائج:

ماذا لو خيرت في استنساخك؟!

بمعنى آخر، لو طرح عليك السؤال التالي: هل تفضل أن يكون لك قرائن مماثلة لما أنت فيه وعليه؟!

لا أعتقد أنك ستتسرع وتجيب بالإيجاب، لأنك لست سعيداً إلى هذه الدرجة؛ ولا بالنفي، لأن الحياة ليست وقفاً عليك..

ولكن المشكلة تكمن هنا، حين ستفكر في أمر كهذا، ستجد نفسك وجهاً لوجه أمام اختبار شاق، ومحاسبة مضنية ومراجعة معقدة، وتضطر حينئذٍ إلى أن تخرج

من جلدك، وتفكر في معاناتك وهمومك وهموم الناس الآخرين ومصائرهم، وستسأل نفسك أسئلة غاية في الخطورة:

ـ هل ترضى أن يكون لآخرين مثل ما لديك من معاناة؟!

ـ هل ترضى لسواك أن يكون لهم مثل مالك من خيبات؟!

ـ وهل ستُسَرُّ إن وجدت آخرين يغصون وهم يحلمون أو يتذكرون؟!

ـ هل يسعدك أن ترى التقطيبات أو تسمع الأنات؟!

أعتقد أن من كان مثلك مبدئياً ومنطقياً وعقلانياً، لن يكون هيناً عليه أن يقبل بإضافة عدد آخر من البائسين!

ولكن؛ من جهة أخرى، ألا تشكو الوحدة، والقلة الواعية، والندرة التي تزن بالقسطاس، وتتحلى بمكارم الأخلاق؟!

ألا ترغب بأن تكون نسبة هؤلاء هي الغالبة؟! أم إنك تشك في أن تكون الغلبة لهم في أية ظروف، نتيجة اختلال الموازين والمعايير والمقاييس وفق المصالح والأهواء والمنافع والغايات..

الأمر ليس سهلاً، لأنه سيصل بك إلى تساؤل مر:

ـ هل تصلح لهذه الحياة؟!

ومع أن الجواب صعب، ويحتاج إلى جرأة وصدق مع النفس؛ مع ذلك فهو ليس بعيداً عنك، وليس مستقبلاً استنساخياً هذه المرة، بل حاضراً وواقعاً.. فها هم أولادك يدبون على دروب الحياة، بماذا توصيهم؟! وماذا تقول

لهم؟! هل ستدلهم على دربك التي سلكت؟! وتزودهم بالزاد الذي اقتنعت، وإن لم يرغبوا في ذلك؟!

أم ستعلمهم بعض المشاكسة والرد بالمثل، ومنطق العين بالعين حتى مع أبناء الجيران؟!

هل ستنزعج إن رأيتهم يتعلمون ـ ربما من الجيران والأقرباء ـ كيف يلتفون ويداورون ويحتالون؟!

أم ستغض الطرف والانتباه علامة الرضا المبطن والتسويغ الذاتي بأن في هذا صالحهم لأن زمانهم مختلف، ولأن البرّية واسعة وعرة وفصولها قاسية قارسة؟!

صور في البال

من الصور التي لا تغرب عن البال ــ بالي على الأقل ــ وتتناقلها محطات التلفزة في معرض حديثها العابر عن الفقر والفاقة، أو المُفاخر عن المساعدات التي يقدمها القادرون؛ صور أناس أغلبهم من الأطفال بين أكوام من الزبالة، يبحثون عن فضلات فاضت عن كروش متخمين، أو بقايا طعام تناثرت من على زوايا شفاه ناعمة، أو نزّت عن تدشؤات مخمورين، أو أشداق كلاب مدللة.. أو ــ ولكي لا تهتز مشاعركم أكثر ــ ربما كانوا يبحثون عن معلبات كان فيها بعض طعام هؤلاء أو شرابهم! مثل هذه المشاهد لا تنسى، خاصة حين يتسابقون إلى ما تلقيه سيارة زبالة وصلت تواً وما زال الكنز فيها يدخن! أو يحملون أكياساً معبأة، ويخوضون في طبقات من السوائل (الدسمة) التي اندلقت على موائد حضارية، واختلطت مع مرقٍ وحساءات وسلطات و(.....)!!

هل أذكركم بالحشرات التي تدب، وبأعداد الذباب والبعوض التي لا تقوى على الطيران كثيراً، والحيوانات الأخرى التي تحوم!

مثل هذه الصور لا تغيب عن مخيلتي، كما لا يمكن أن أنسى لحظة واحدة أولئك الأطفال الذين هم من جلد وعظم فعلاً، يفتحون شفاهاً جلدية لحساءٍ يوزع عليهم، وهو لا يغني ولا ينقذ إلا سمعة واهبي المساعدات، لبعض الوقت.

ولا يمكن أن ينسى أولئك الأطفال الذين يجترعون القصف ويعانون الجوع والحصار تحت الاحتلال، والشظايا المسمارية أو الفوسفورية غير بعيد عنا..

في كل مناسبة احتفالية عالمية، من كل سنة أتذكر مثل هذه المشاهد..

في هذه المناسبة، كسواها من المناسبات التي لا تنتهي، تصرف على الزينات ما يكسو فقراء الأرض، ويصرف على الموائد ما يشبع جياع الدنيا.. ويؤوي مشردي هذا الجنس (العاقل)!

صحيح أن الحياة لا تتوقف حتى يلتحق الجميع بركبها، ولا يهمها عدد الراكبين أو أزياؤهم أو أوضاعهم، وليس من مصلحة الحياة أن تتوقف.. ولكنْ؛ هناك أناس قيمون على الحياة، يعدّون أنفسهم كذلك؛ إذ يسوسون الدنيا كما يشتهون، ويوزعون أوامرهم و(أخلاقهم) على الجهات، وينشدون (العدل) و(المساواة) و(حقوق الإنسان)! ويطالبون بتنفيذها.. ولكن وفق معانٍ مختلفة ومعايير مختلفة! ترى ماذا يقول هؤلاء عن مثل تلك المشاهد؟! وماذا نقول نحن؟! وكيف نحتفل؟!

هل يعرف بابا نويل طرقاً جديدة غير التي سلكها قبل الآن؟! هل لديه خرائط أخرى مرسوم عليها مواقع أخرى، ومخطوط عليها عناوين أخرى؟

وماذا نقول ونحن نحتفل؟! وبماذا نحتفل؟! وكيف ؟!

ألا يكون الاحتفال إلاّ بالموائد العامرة والوجبات المفتوحة (هكذا يسمونها، لكنها مفتوحة على أناس، ومغلقة جداً على كثيرين!!)؟!

ألا يصحّ الاحتفال إلا بإغراق الفضاء بصيحات النصر وطلقات الفخر؟! ولكن أي نصر إنساني؟! وعلى من؟! وأي فخر وبماذا؟!

ألا ينجح الاحتفال إلا بالتزيين والتلوين؟! ولا يكتمل إلا بمباركة الفنانين والفنانات من مختلف المستويات والأشكال والأزياء والرقصات؟!

إن الاحتفال، سواء أكان في صدر السنة أو أطرافها (إذا كان لها أطراف)، لا يصح إلا بفعل إنساني حقيقي، يخفف بعض مآسي الآخرين، فعل إنساني يوفر على أيٍّ كان أنةً أو غصة أو حشرجة.. ولا بد من التأكيد أنّ المشكلة ليست في المناسبة بحد ذاتها؛ ولكن في طريقة ممارستنا لها وتفسيرنا لمعناها، وعدّها مناسبة للمبالغة حتى في الطعام والشراب.. وقد لا يقتصر هذا السلوك على أوقات المناسبات؛ بل يتعداها إلى أيام كثيرة أخرى.. إن أولئك الأطفال الذين يرفلون بأكوام الزبالة، سيكون لهم موعد مع هذه المناسبة العالمية، وهم لن يربحوا الملايين في اليانصيب المعد لسواهم، ولن يكون لهم مكان في أماكن السهر والسمر واللهو.. ولن تمتد إليهم يد (بابا نويل) ولا أي بابا بالهدايا، ولكنهم سيحظون بفضلات جديدة أكثر كمية ودسماً...

وهي لن تصلهم إلا بعد أن يخف أوار الاحتفال.. مع ذلك فإن أمامهم الوقت كل الوقت، واللهفة كل اللهفة،

لإشـعال الاحتفـال مـن جديـد، وفـق شـجنهم الخـاص
وبؤسهم المقيم!!

كل رأسٍ وأنتم بخير!

لا أريد أن أسرق منكم بهجة العيد، ولا أحب أن أنغص عليكم آمالكم، وأصادر أحلامكم وأنتم ترقبون رأس السنة الجديدة، وترسمون تسريحة مناسبة لها، وتتخيلون ملامح لوجهها القادم، وأظن أنكم لن تتوقفوا طويلاً عند كلماتي، ولن تحتاجوا إلى رأيي ومشورتي، لأن الولادة طبيعية، وفي الوقت المحدد والتوقيت المضبوط، بعد أن (أكلت) السنة التي تمضي أيامها/ أيامنا كاملة من دون زيادة أو نقصان.

فلا خوف إذن من ولادة معترضة أو (قيصرية)، ولا قلق من أن تظهر الأقدام مثلاً قبل الرأس، لأن أي عضو يظهر منها، ومهما كان شكله أو حجمه هو رأس ـ في نظركم طبعاً ـ

وهناك أمر أكيد آخر، هو أنه لن يشغلكم بكاء المولود الجديد، وهذا ليس تشاؤماً؛ بل إنه الأمر الطبيعي، فطالما هناك مولود. هناك بكاء؛ والمولود أي مولود لن يأتي ضاحكاً! فأنا لم أسمع في حياتي ــ ولا أظن أنكم سمعتم ــ بمولود جاء ضاحكاً. يمكن أن لا يبكي، وفي هذه الحالة يكون هناك من يبكي، لا شك في هذا؛ فطقس الولادة ـ كما الموت ـ مرتبط بالبكاء!

أنــا لا أخلخــل مهرجانــاتكم، ولا أخــرب بــرامج احتفالاتكم أو ألعابكم؛ بل أحاول فقط أن أفكر في هذه المناسبة على طريقتي!

تخطر ببالي الآن حكاية ذلك الطفيلي الذي دل الناس على وليمة اخترعها خياله، فلما رآهم يذهبون إليها زرافات، مشى معهم.. الزمن حيادي لا رأس له ولا أعضاء، لا ملامح ولا غرة.. الزمن بارد نحن سخّناه، كان رمادياً فلوّناه، كان شارداً فنبهناه، كان مقعداً فمشّيناه حتى على رؤوسنا!

لم تكن له علاقة بشيء، ربطناه بنا، أو ربطنا أنفسنا إليه، لعبة مسلية مُنسيةٌ مُؤَمَلةٌ مريحةٌ.. لا بأس!!

ليعايشها من يستطيع، وليطلب منها ما يشاء، وليأمل منها ما يحب، وليسمها ما يحلو له.

ولكن حذار من الإفراط في اللعب بها فقد تنكسر!

حذار من تسليمها كل شيء، فقد تبدده وتذروه من دون مسؤولية أو خوف من عقاب، فلا عقل لها، ومن دون رحمة أو شفقة؛ إذ لا قلب لها.. (فكيف يداوي القلب من لا لَهُ قلب؟!)

افرحوا إن استطعتم. ولكن للآخرين حق أن لا يفرحوا. توهموا.. وللآخرين حق في أن لا يتوهموا، فاتركوهم في حساباتهم الأخرى، أفكارهم الأخرى، وأوهامهم الأخرى.. أنا لا أريد أن أخيفكم من (راجح)، فقد يأتي (راجح المليح وراجع المعتم تاخذه الريح)!

لا أريد أن أفسد أفراحكم، وأقلل من جدوى مشروعاتكم، ولن أقول لكم إن الولادة لن تحدث، أو إنها قد تحتاج إلى (القيصرية).

ولكن سأهمس في آذان من يستمع منكم:
هل تكفلون أن أحلامكم لن تحتاج إلى (قيصريات)؟!
أو إلى عمليات تجميل باهظة الكلفة؟!
أو إلى طقوس بكاء مر؟!
وكل رأسٍ وأنتم بخير!

أنانيّة!

لشد ما يحزنني أن تطغى الأنانية على مزايا ومشاعر يفترض أن يتصف بها الإنسان، بما هو كائن اجتماعي، اختار أن يعيش جماعات، ويؤسس علاقات، وتنتج عن ذلك تفاعلات ومصالح مشتركة، تسمّى في الحدود العليا لأية مجموعة مصلحة عامة؛ وهي بكل المقاييس والمفاهيم والأعراف أقوى من المصلحة الخاصة؛ أية مصلحة خاصة لأي كان. في الأنانية يعدّ الإنسان نفسه سيد العالم، كل شيء من أجله، وكل ما يمكن أن يحصّله لأجله، بغض النظر عن جميع الآخرين الذين عليهم أن يصبروا أو يتصابروا، وأن يلعنوا الظلام وحظهم والظروف، وأشياء أخرى ربما!

إنه مرض يفترض فيه أن المؤسسة ملك لمديرها، والدائرة ملك لرئيسها، ولا يمكن أن تكون مصلحة لها إلا من خلال مصالحه، ولا يمكن أن تكون مبادرات إلا منه أو من أجله، وعلى الآخرين أن يقنعوا ويوافقوا...

الأنانية تعمي الناظر عن تفسير ما يرى منطقياً وواقعياً، وتترك له نافذة واحدة، هي نفسها التي يمر منها الضوء، ومن خلالها وخلال أهوائها ومصالحها تظهر

الأشياء الأخرى؛ إنها الميزان والمعيار، ولا مرجع إلاها..

والغريب في الأمر، أن يغرق بعض المثقفين في مثل هذه البلية، وهم بحكم كونهم قادرين على القول إضافة إلى الفعل أو بدلاً منه، يستطيعون تعميم هذه النظرية وتلميعها وتزيينها؛ خاصة إذا كان لهم منابر إعلامية، أو دالة على بعض ممن هم في تلك المواقع؛ إن رأيهم نهائي، وقولهم فصل، وعملهم هو الإبداع الحقيقي، حتى لو كان نميمة على الآخرين، وفهمهم هو المعول عليه في النهضة والتجديد.

المثقف والمبدع يفترض أن يكون تفكيره إنسانياً، لا يقف إلا حيث يكون الحق، ولا يقول إلا ما يخدم إحقاق الحق، ولا يتوانى عن فعل ما يساهم في سيادة المصلحة العامة؛ لا أن يسعى إلى تقزيم الآخرين، كي تظهر قامته هي العليا!

والأنانية تتضخم وتتوسع لتصبح تعصباً، وهو الوقوف عند رأي لا يُناقَش، وقناعة لا تُحاور، وموقف متصلب، يفتقر إلى المسوّغات التي تجعل الآخرين يقتنعون به، وربما يتبنونه، ويضاف إلى ذلك، وحين تظلم النفس وتتقهقر، تعصب لأسرة أو لعائلة، أو سوى ذلك من مظاهر تهشم المجتمع، وتبدد قواه وإمكانياته.. وفيها أصبح أنا أفضل الناس وأفهمهم، وأسرتي أنقى الأسر، وعائلتي من عرق مبجل، بصرف النظر عن سلوكيات أفرادها ومستوياتهم وتصرفاتهم وأقوالهم المسوغة مهما أساءت؛ في الوقت الذي تغدو الهفوات لدى الآخرين مثار ازدراء واستخفاف وتشهير وتضخيم..

وهذا التعصب قد يُبتلى به الكثيرون ومن شرائح مختلفة: فقراء وأغنياء، أسياد وعبيد، أميون ومثقفون..

أذكر في قريتنا ـ وفي قرى أخرى لا شك ـ كانت تصغر أسماء الآخرين وتكسر: يوسف إلى وسوف، وعلي إلى علوش، وصالح إلى صلوح وسلمان إلى سلوم وغير ذلك.. وكان يبحث عند التسمية عن اسم لا يكسر.. لكن هذا لا يمنع من تحريك بعض الحروف التي تعطي انطباعاً لدى قائله وسامعه بدونية حاملة وقلة عقله وإمكانياته..

مثلاً: كان هناك أحمِد (بكسر الميم) بدلاً من (أحمَد) (بفتحها)، ومحمِّد بكسر الميم الوسطى بدلاً من فتحها.. وحسِن بكسر السين بدلاً من فتحها.. وفي هذا معنى لا يخفى، ودليل على الرغبة بتقزيم الآخرين، بما يدل على أنه لا يحق لهم أن يكونوا مثل سواهم.. سويين وعاقلين وفاهمين، أو ينتمون إلى عائلة من صنف أرقى!

صاحت امرأة بابن الجيران: "يا برهوم، يا برهوم، وحين رد قالت له (شفتللي ابراهيمنا!!). فقال رجل سمعها: لماذا هذا برهوم، وذاك ابراهيم؟!

وفي حادثة أخرى، ربما تكون أكثر تعبيراً: كانت امرأة من عائلة غربت شمسها، في عيادة طبيب تراجعه بسبب مرض السكري، فتصادف وجودها مع حضور رجل ممن كانوا من الناس العاديين في فترة نفوذ أسرتها، يراجع الطبيب ذاته، وحين قال له الطبيب، وهما يخرجان من باب العيادة إلى غرفة الانتظار: يجب أن تنتبه لنفسك، فالسكري لا يرحم!

انتفضـــت المـــرأة كالملســـوعة، وقفـــت وقالـــت:
"سكري؟! أنت معك سكري؟! ييه اتشرشح هالمرض!!"،
وخرجت صافقة الباب وراءها بعنف!

الضّحك من القلب!

كما في كل مرة، يعود الربيع؛ يمكنك ملاحظة دبيبه الملوّن في أي ركن لم يصله الاسمنت أو الاسفلت.

بهجة وسرور وسعادة تتسلل إلى أحاسيس الناظر، هذا ما يفترض أن تبثه الأزهار والخضرة في النفس.

لكن هذا ما يجعلني كئيباً!

أمرٌ لا يصدّق، ولكنه حقيقة أعترف بها الآن.

إحساس قاومته كثيراً في ما مضى، لكن المقاومة لم تغيّر من الواقع شيئاً.

وحاولت تفسيره لأقتنع وأُقنع، وبقيت الحال على ما هي عليه.

وحين أفكر في الأمر، تبرز أسئلة كثيرة تحتاج إلى أجوبة أكثر!!

فما الذي يُضحك في هذه الحياة؟!

الشقاء المتواصل، والسعي المستمر، والكدح المضني؟!

الاحتراق المستعر، والدخان المتكاثف؟!

المحطات القارسة، والنهاية المحتومة؟!

وما الذي يبهج في هذا الواقع على امتداد الكرة المجنونة؟!

ملايين المشردين والجوعى والمرضى والمحرومين والمعذبين؟!

الأمراض المكتشفة والغامضة؟! ممكنة المعالجة والعصية؟!

الديناميت أم جائزة نوبل؟!

الحروب المتنقلة، والقهر المتوزع، والظلم المهيمن؟!

أسلحة الدمار الشامل، أم مؤتمرات تدمير الألغام الشخصية؟!

أنا أحب الضحك من القلب.

فهل يستطيع من له قلب أن يضحك؟!

هل هذه الزهور تضحك من قلبها، أم أنه ضحك مبرمج أو آلي؟!

أنا أكره الضحك الآلي، لأنه ضحك بلا سبب؛

بل إنه ضحك مُضَلِّل!

هل هذا معقول؟! هل الأزهار مُضَلِّلَة؟!

لماذا إذن تبقى ضاحكة حتى لو سَحقتْ أقدامٌ جاراتها جميعاً، من دون أن يرف لها تويج، أو تَذُقَّ لها مِدَقّة!

حالها هذه تذكرني بكائن له قلب ــ هذا ما يقره التشريح ـ ويعيش ضحكاً هستيرياً رغم كل ما يجري، ويتَّهمك بالتشاؤم والمرض والبعد عن روح العصر والاكتئاب والسلبية، إن اعتذرت عن عدم القيام بهذا الضحك، وانخرطت في بكاءٍ صامتاً كان أو صائتاً.

*

إن نظرة بسيطة لما يجري في العالم الذي صار قريباً وصغيراً "وتحت السيطرة" بأمر قبضةٍ واحدة، تجعل إمكانية أن يفتَرّ ثغرك أو تداهمك ضحكة أو تسرقك إشراقة أمراً مستبعداً، حتى إن كان هذا الذي يجري من شَرّ البليّة!

بيوت تفجَّر تحت أعين العالم، أطراف تكسَّر، رؤوس تخفض وتدمى، أجساد تُجَرُّ خارج مأواها وموطنها وأُسَرِها وحياتها! ومؤتمرات وشعارات وبيانات واتفاقات، تفرض عليك الفرح والتهليل والرقص والضحك لأن السلام حقيقة واقعة "وإرادة دولية"! وإن لم تفعل فأنت خارج المعادلة التي طرفاها: هُم (المؤتمرين والمتعاضدين والمتعاونين ضد "الإرهاب") والسلام.

أما أنت، ولأنك لا ترى لهذه المعادلة من حل سوى الحل التافه (صفر=صفر)، كما في الرياضيات ــ التي يجيدون استخدامها ــ فأنت خارج نظام الضحك المفروض أو المجاني أو الآلي؛ وبالتالي مرفوض ومحاصر ومطلوب. والمشكلة أن لك عقلاً لا يستطيع تقبّل أفكارهم وتفسيراتهم وتحليلاتهم، وروحاً لا تستسيغ غواياتهم وإغراءاتهم ودسمهم المسموم، وقلباً، فلا تستطيع أن تضحك من قلبك!

هل تلام الدنيا أم القائمون عليها؟!

هل الحق على الفصول أم على مفصّليها كما يحبون؟! هل ألوم الأزهار أم ألوم عدم وجود قلوبٍ لها؟!

هل ألوم نفسي أم قلبي أم عقلي أم"..؟!

الربيع يلوّن كل شيء غير عابئٍ باكتئابي الذي يتكرر كلما قدم ربيع، وأنا، لا أطلب منه أن لا يأتي،

ولكن أتمنى أن أستطيع يوماً أن أضحك من كل قلبي،

ولو مرة في العمر!!

في المتحف

لأنــك معتــرف بــأن للحيــاة طقوســها المتفاوتــة، وفصولها المتنوعة، وقوانينها التي لا تلقي بالاً للأماني، ولا تتوقف كثيراً أو قليلاً عند الأحلام والأنات..

لأنك متفائل بأن للحياة رغم انضغاطها، ورغم مكوثك الضئيل فيها، متسعاً لموقف مقدر، ورأي يحترم، وقول ذي صدى عطر..

لأنك مقتنع بأن في الحياة احتمالات لمستمع جدي، أو راغب حقيقي في الاستقامة، أو كائن يتمنى الخير للآخرين، ساع للحق، مستعد للتضحية في سبيله..

مازلت تخوّض في شعاب الحياة بلا مجانية أو حيادية أو سلبية..

*

لأنك متسع، تعبر في فضائك الأنهار؛ حتى تلك التي فقدت عذوبتها منذ زمن.

وتعبرك التيارات التي تتصارع، فتصيبك الشظايا، وتتواءم، فتنال منك طلقات الفرح.

وتعيش في محيطك الكائنات تغتذي وتتفيأ، وترميك بالحجارة والسهام، وأشياء أخرى..

لأنك مختلف، يختلفون عليك، ويتفقون على إهمالك.

لأنك قلق، تتبرأ منك الريح، وتتغافل عنك الشمس، وتهرب الظلال..

لأنك جادّ رغم خيبتك، ومجتهد رغم اليباب، ومنطلق رغم الحفر والضباب، تتوعدك النصال، وتتهيبك الشاخصات، وتتساءل عنك المفاوز بلهفة.

لأنك منفتح، تنغلق أمامك المنافذ، وتغص الآفاق بالدخان والسراب.

لأنك حاضر، يُهرَّب الوقت والعمر، وتصادر المواعيد.

لأنك شاطئ الأمان، ترتفع الأشرعة صوبك، وتدار الدفة إلى جهات أخرى.

لأنك صامت، يملؤون الساحة أصواتاً وإيقاعات، وينكرون السكوت الذي لا يوافق!

لأنك تعرف، تحس، تفكر.. يقيمون الصلاة عن روحك؛ يَنذُرون ويضحّون ويذرفون.

لأنك ساهم شارد حائر، تقام المآتم، ويدعى الناس للاعتبار!

*

جميل صوتك.. لا تنوح
بارع رقصك.. ربما من الألم
عصية غاياتك
وعرة دروبك
بهية ثلومك

نديّة عينك
كثيفةٌ الوشايات بك
وافرة آثامك
قصيّ خلاصك
عنيد تصميمك
واثقة خطاك
فكيف يمكن أن..؟!

❋

لأنك منسجم مع نفسك، متماسك، صامد.. تحوم العناكب، وتُرسَم حولك الأسوار، ويهيأ لك مكان يليق.. في المتحف!

أشجار حيّة!

قلقٌ بادٍ، وخوف غامض، ومشاعر غريبة تتنازعني، حين أعبر صفاً من أشجار تميل جذوعها باتجاه واحد، وأحسّ بقهر لا أستطيع دفعَهُ، وبأسىً لا يخفى ولا ينقضي بسهولة.

فالشجرة منذورة للارتقاء، وما تتعرض له من كسرٍ أو اقتلاع أمرٌ مأساوي فاجع؛ أما الحال هنا فهي تمثّل مجموعة كائنات تواصل صمودها وثباتها، رغم ما تتعرض له من العصف والعسف.

وليس غريباً أن تتعرض الكائنات الحيّة لنزوات الطبيعة وطقوسها التي يبدو بعضها جنونيّاً، ويكون لهذه الكائنات ردود أفعال مختلفة؛ أما الأشجار فتواجه رياحاً ونسائم وهبوباً.. وتتناغم معها، وتميل من جرائها، وتعلن عنها برقصاتٍ وأصواتٍ مميّزة.. ولكن كل هذا لا ينفع؛ فالرياح سيدة الجهات، يمكن أن تأتي من حيث تشاء؛ لكنها حين تهبّ من جهة واحدة طوال الوقت، ومهما كانت الأسباب جغرافية أو مناخيّة أو كونية، فإن الأمر يصبح صعباً، والحال عصيّة..

فالحياة لذتها في تنوعها، وإثارتها في تناقضاتها، وهي لن تكون ذات معنى وقيمة لو جاءت فرحاً دائماً

خالصاً؛ بل إن معنى الفرح نفسه يتغيّر.. ولو كانت حياةً بلا موت، لفقدت متعتها أو اللغز الذي يجعل منها جميلة مرغوبة مأسوفاً عليها.

جمال الطبيعة في ألوانها وطقوسها المتعددة.. وجمال الأوقات في أنها تتنوّع، والشمس تغيب ليصبح لحضورها في اليوم التالي مغزىً ومعنىً؛ اللون الواحد ممـلّ، والوجه الواحد منفّر، والبعد الواحد ضيّق، والصوت الواحد فقير، واللحن الواحد فاقد القدرة على استثارة الاهتمام المتصل والطرب والاستمتاع والاقتناع.

حين تكون شجرة واحدة مقوّسة الجذع، يمكن أن تقول إن العلة فيها، وإن هناك خللاً ما في تركيبتها ــ ربما كان وراثياً ــ أفقدها القدرة على الصعود أو الصمود؛ ولكن حين يكون صف من أشجار أو صفوف، أو جزء من غابة، أو الغابة كلها، على تلك الحالة، لن يكون صعباً، حتى إن لم تكن فهيماً في المناخ، أن تعرف أن جرم هذه الأشجار هو انتصابها في وجه تيار هوائي عنيد، لا يني يحاول العبور من هذه البوابة، وفي كل مرة تقاوم جنونه هذا بحكم تكوينها وتوقها إلى العلاء، ووجودها ومراكزها، تتقصّف أغصانها المواجهة مباشرة، لكنها تنتصر في مرات كثيرة، بخسائر تبدو تباطؤاً في السموّ، ومَيَلاناً في الجذع نحو الجهة الأخرى؛ لكنه تكتيك المقاوم، لا انحناء المطيع المستسلم، ثم تنتظر المواجهة التالية.

في كل مرة أرى هذه الحال أقول: قدر الأشجار الحية أن تصمد، وقدرها أن تقاوم، أن تقوّي الجذور وترسلها عميقاً في طبقات التربة المختلفة، قدرها أن تدعم الجذوع، وتمدّ الأذرع الخضراء في اتجاهات

عديـدة، قـدرها أن تكـون أمثولـة فـي الصـلابة والعنـاد
والدفاع عن حقها في الهواء والضوء والعلاء..
وحتى لو ماتت فلم تموت إلا واقفة!!

صداقة!

توقف هَزُّ رأسي موافقاً، أو مسايراً صديقي الذي أوغل في الحديث عن (ثالثة الأثافي) صديقنا الدائم، معلقاً على كل صغيرة وكبيرة وملمح وكلمة وتصرف.. وشردت قليلاً في ما كنا نتحدث به ثلاثتنا مراتٍ كثيرة، وفي أغلب لقاءاتنا، عن ضرورة أن نكون كائناً مثقفاً واحداً، في مواجهة حال الاستهزاء والنكران واللامبالاة التي نقابل بها باستمرار من الشرائح المختلفة، التي ترى غايتها وهدفها المصلحة المباشرة ماديةً أو منصبيّة أو وجاهة.. وعقدنا العزم على أن نتعالى على الصغائر، ونرتفع فوق التفاهات، ونصون كياننا الذي يتعرض للعواصف من كل الجهات، وأن نبحث عن كل من له اهتمامات مشابهة أنّى كان، وأن نعيش في حال من السموّ المعرفي والتسامح الإنساني..

هذا ما أكدناه مراراً.

كان محدّثي يُعمل كل ما لديه من موهبة وحساسية ودقةٍ في اكتشاف كل ما يجعل من صديقنا المشترك هيكلاً مجرداً، أو دريئة بعد عرض لرماةٍ مَهَرة.. وحين لاحظ انقطاعي عن متابعته، وتَسَمُّرَ عيني في عينيه ووجهه، توقف مندهشاً، وقال:

ـ ماذا دهاك؟! هل تضايقت مني؟! هل في كلامي ما يضايق؟!

لم أرد، بقيت ساهماً جامداً، فأضاف ساخراً:

ـ آه، حزنت على صديقك، تنزعج مني من أجله.. أنا لست صديقك؟!

لم أرد، أيضاً.. فانتفض حانقاً:

ـ هل تظن أنه صديقك وحدك؟! إنه صديقي مثلك وربما أكثر منك.. ألم تتساءل إن كنتَ صديقَه؟! هل تعتقد أنه يحبك ويريد لك الخير؟! واهم يا صديقي واهم! هل عرفت ما حدثني عنك؟! لقد قال أشياء لا يمكن أن تقال، حتى إن لم يكن بينكما صداقة؛ قال...

قاطعتُه:

ـ أرجوك، توقف! لا أريد أن أسمع ما قال هو، ولا ما قلت أنت؛ أنا لست حزيناً عليه وحده؛ بل حزين عليك، وعليّ. أنا حزين علينا جميعاً..

ـ ولماذا هذا الحزن الجمعي؟! وهل يعني إذا كنا أصدقاء، أن نقبل كل ما نفعله أو نقوله؟! هل يعني أن نتغافل عن رؤية السلبيات، ونمتدح ما يصدر من أحدنا أيّاً كان؟! أهذا هو تعريف الصداقة لديك؟!

قلت: أتعرف.. لقد اكتشفتُ تعريفاً جديداً للصداقة أو لدرجة الصداقة..

قال: وهل عليّ ـ لأنك صديقي ـ أن أقبل به، وأوافقك عليه وأمتدحه؟!

قلت: لا.. يمكن أن لا تقبله، ولكن أرجو أن تستمع إليه فحسب!

قال: نَوّرنا.. يا فيلسوف زمانك!

قلت: درجة الصداقة تحددها درجة قرابة من يمكن أن تتحدث عنه مع صديقك؛ فكلما كان قريباً جداً (ليست قرابة الدم فقط) كانت درجة صداقة من تتحدث معه عنه قويّة جداً!

قال: تستحق براءة اختراع على هذا الاكتشاف! وبناء على هذا التعريف، من هو الصديق الأقرب إليك أنا أم هو؟!

قلت: أنا أرى أن هذه ليست صداقةً أبداً، أبداً.

حبّ!

أحبّك، هذا ما يجب أن تفكر فيه، هذا ما يجب أن تعتقده، وعليك أن تقبل أن ما من أمرٍ ينحدر مني إليك، إلا كان مبعثه هذا الحب، وما من سلوكٍ أو تصرفٍ يصدر مني تجاهك، إلا من فرط محبتي لك، ومن وجع قلبي على قلبك.

حتى لو طلبتُ منك أن تتماهى لتغدو ظلاً لي، وصدىً لأقوالي، وأثراً لأفعالي، ورذاذاً لانفعالي، فإن هذا في صالحك.

وإن رغبتُ بأن تقفز في البحر، لأُظهر للآخرين شدة طاعتك، وجمال انطلاقتك؛ فعليك أن تفعل بلا تردد، ومن دون أن تذكّرني أنك قد لا تجيد السباحة!

وإذا ألمحتُ، أو أفصحتُ عن رغبتي بأن تصيرَ دريئةً لأتعلم فيك الصيد، وأكتشفَ في صدرك قدرتي على القنص القريب أو البعيد؛ فإن وقوفك في المكان المطلوب إشارةٌ واضحة بأنك تتمنّى لي النجاح عبر صواب الرماية، ودقة الإصابة، ومهارة التسديد، ومتعة الهواية، وإشارةٌ إلى أنك واثق من أني لا أبغي ذلك إلا من أجل الدفاع المجدي عنك، والمضيّ حثيثاً من أجل مستقبلك وصون أحلامك التي أعرفها، ولا داعي لأن

تشرحها لي وتفسّرَها، أو تطلبهَا أو تحلمَ بها، ولا وقت لدي لذلك.

إن امتداحك لما أقول فيك، يعبر عن ثقتك الغالية بما أكنّه تجاهك، وما هو رابط بيننا، وهو ما يدفعني للقول أكثر، وليسمع بذلك القاصي والداني، الغريب والحبيب، حتى لو تداخلت في عباراتي بعض الكلمات التي قد يفهم منها تذكير بماضيك، أو جذورك، أو سلوك أي من أقربائك أو معارفك؛ فهذا لا يعني إطلاقاً النيل منك، والتسفيه لمواقفك، ومبادئك؛ إنما يعبر عن أن قبولي بك مبنيّ على معرفتي المسبقة بكل سوءات تاريخك، ودرايتي وعلمي بكل المفاصل الصدئة في فصول حياتك، وهذا يعني أن لي فيك نصيباً مهماً لا ينال منه أيّ من الحاسدين أو المزايدين أو مدّعي حب مصلحتي، التي هي مصلحتك بالضرورة! واعترافك بما أقول، لا يترك فرصة لمن يريدون الصيد في المياه العكرة، أو الذين يُكبرون فيّ هذا الترفّع وهذا التسامي في حبي..

كما أن امتداحك لما أقول في أي أمرٍ وأي موضوع مختلف، إنما يعبّر عن جوانب إيجابية لا يمكن تجاهلها، فهي مشاركة منك في موقفي، ومساندة لي في مشاريعي، وتقدير منك لنضالي من أجل حبي/ حبنا!

وهو تعبير عن نجاحك المتمثل في نجاحي الأكيد، وتقدمك الذي يؤمنه تقدمي الموعود. وهو استباق لتتويجي بانتصارات مقبلة، ولهذا منزلة وقدر وتقدير.

حتى إن فشلتُ في ما أرمي إليه ـ لا قدَّر الله طبعاً ـ فلن تخسر شيئاً؛ إذ لا معنى لوجودك من دوني ولا جدوى لبقائك من بعيد، ولا وقوف لقامتك إن اهتز شموخي، ولا طعم لأوقاتك أو رائحة إن خلت من أنفاسي، ولا صدى لصوتك إن ضاعت صيحاتي.

أولـيس حبـك لـي هيامـاً؟! وتعلقـك بـي استسـلاماً؟! وانتظارك لإشاراتي عطشاً وجوعاً؟! وارتهانك لرضـاي عبادة؟!

ألــيس اقترابــك منــي احتراقــاً؟! وابتعــادك عنــي انتحاراً؟!

أليس ارتعاشك لمرآي ولهاً؟! وتشظيك من عبوري ولو في مخيلتك تقرباً؟! وتلاشيك من أفكاري ومن خيالي تضحية ما بعدها تضحية؟!

ألا يكفيـك أنـك تحبنـي؟! ألا يرضـيك أنـك تتفقّـى أثري؟!

ألا يفرحك أني أحبك؟! أم أنك لم تقتنع بعد؟!

ألا يهنيك أن قلبك يستفيء ــ يتمنّـى أن يستفيء ــ قلبي؟!

وأن خطوك يتراقص على إيقاع رغباتي؟!

ألا يكفيك أنك لي؟!

وهل يحتاج ذلك إلى برهان؟!

ما دمت لست شيئاً ولا تعبر عن شيء!!

من طرف واحد !

أحب، أحس ذلك امتلاءً وانشغالاً وقنوطاً..

لم يكن الحب يوماً مدعاةً للحزن، حتى في أكثر حالاته حرماناً، وأكثر حالات الهجر والنكران والخيبة..

لكن الذي يحزنني في حبي أمرٌ مختلف، ربما كان غريباً، وقد يكون البوح به أصعب من كتمانه. وهذا ما يزيد الشجن والأسى..

في ما مضى، كان الصمت يتولّى التعبير عن مكنونات النفس التي تحترق، ونقول بلا مبالغة أو ادعاء: إن الكلمات تعجز عن التعبير عن مدى العشق ومقدار الهيام.. وكنا نقف أمام فيض العواطف، مستسلمين لحال من الاحمرار، أو الشرود، والتلذذ بالعذاب، والتمتع بتصورات وخيالات تجعل المحبوب سامياً بهياً نقياً.. ونسبغ عليه من الصفات والمزايا ما يرفّعه عن مستوى الكثيرين، وربما البشر جميعاً، كائناً من كان هذا المحبوب؛ ونحسّ بالجدوى حين نقنع النفس أنها تضحّي، وأن التضحية في الحب أمرٌ مقدس، حتى لو انتهى إلى النحول والشحوب والمرض والجنون.

كان الأمر ممكناً أن تجد المحبوب الذي يمكن أن يتولّى تلك المسؤولية راضياً أو رافضاً، عارفاً أو جاهلاً، مُقْنعاً أو سافراً، أهلاً أو غير كفؤ، حاضراً أو غائباً..

الآن، أحسّ أن فيضاً من المشاعر المخزونة تحتاج إلى أن تنطلق. وأن أضاميم من الكلمات المعطرة، والجمل الزاهية، والنفحات المشحونة بالعاطفة، تود أن تتعلق على محبوب يستحق بالحالة الدنيا..

أحتاج إلى محبوب من أية طبيعة كان، ومن أية طينة يتكوّن، ومن أية جهة أطل؛ من الأرض أو من السماء، من البحر أو من البحر، من المعارف والأقارب، أو من الأباعد، من بلاد الله المعروفة أو تلك التي لم تكتشف أو تتصور بعد!

أحتاج إليه؛ بل أنا في أمسّ الحاجة إليه، لأبثه أحاسيسي التي تصطرع، ونجواي التي تلهث، وبوحي الذي ينضغط تحت غلالة حيّزي، الذي يضيق، وجسدي الذي يشف..

أليس هذا محزناً؟!

أن تعجز عن أن تجد من تقتنع به، أن تلقى من يمكنك أن تهبه نفسك وحياتك وكيانك، وليفعل بها ما يشاء..

والمشكلة أن سواك يرون في الكثيرين مثل هذا، حقيقة أو وهماً، واقعاً أو خيالاً..

مع ذلك فهذا مريح لهم على الأقل!!

أما أنا، فلا أستطيع حتى أن أعكس كل هذا عليّ، لأجعل من نفسي ذلك المحبوب المرتجى، ولا أن أنثر

مشاعري وانفعالاتي في الفضاء لتذروها الرياح، فأفقد المعنى والجدوى..

وهل هناك حال أكثر قلقاً وبؤساً وشقاءً من حالي هذه؟!

اللوحة

لا.. أنا لم أُرد أن أشوش اللوحة، أو أثقبها.. أنا لم أرغب في بعثرة الألوان كيفما اتفق، ولم أفكر في أن أعكر انسجامها..

هل يمكن أن يقوم بهذا من أفنى عمره من أجلها؟! هل يمكن أن يقوم بذلك من كانت غايتَهُ ونصبَ عينيه، منذ أن استطاع تثبيتهما في اتجاه؟!

لا.. أبداً، فاللوحة لي أكثر من أن تكون لأيٍّ كان، اللوحة لي منذ أن كنت وكانت؛ وهي لغيري أيضاً، أنا لا أنكر ذلك، لغيري قبل أن أكون، وربما بعد أن أمضي.. لهم الحق كما لي الحق بابتداع أشكال تغنيها، تزينها، تبهجها.. ولكن ليس لهم الحق ــ كما أنه ليس لي ــ أن نقلبها رأساً على عقب، أن ندّعي امتلاكها، تكوينها، تقرير شكلها النهائي بغض النظر عن الآخرين..

لكلٍ منّا تصوُّر دوره ولونه وخطه، لكلٍ منا خيالاته، أفكاره، رؤاه بما يمكن أن يهب من نفسه، من وقته، وعرقه، من صدقه وإخلاصه وطيب نواياه..

أبداً، أنا لا أحب أن أكون ناشزاً، ولا أن يكون لريشتي وقعٌ مربك، ومسار شائك.

أنا كنت أرسم فقط، أمارس هوايتي، مهنتي، رغبتي في أن أجعل اللوحة أكثر بهاء وإقناعاً وإمكانية تحقيق، ومشروع خلود؛ كلهم يقولون ذلك، نعم، ولن يحاسب على النوايا غير الله، هو ذلك فعلاً، ولكن ليس التفريق بين القول والفعل مستحيلاً؛ فاللوحة موجودة، والرسومات والخطوط والألوان حاضرة. ما زال الكثيرون يرسمون. الأمر لا يحتاج إلى تكهن أو تنجيم أو ضربٍ بالرمل!

اللوحة مثقوبة؟! أنا لم أثقبها؛ كثير من الفراشي، كانت مسامير وسكاكين وأشواكاً، كان صوت حزّها على اللوحة يحز في نفسي؛ كثير من الرسامين لم يكن لديهم الموهبة أو القدرة على الرسم، وكانوا يرسمون، يتباهون ويتبارزون ويتزاحمون على سطح اللوحة التي تئن، وتحتاج إلى من يسمعها..

اللوحة مشوّهة مشروخة؟! لماذا أُحَمّلُ المسؤولية وحدي؟!

أنا لم أقايض، ولم أقاول، ولم أساوم.. ها فرشاتي لم تزل معي، وها سطل ألواني؛ فرشاتي من عيدان هذه الأرض، وألواني من حنّائها!

اللوحة لن تفوز على اللوحات الأخرى، وستبقى عاجزة عن ذلك، إذا لم يقم برسمها الرسامون الحقيقيون الموهوبون، إذا لم تستخدم ألوان أصلية غير مموهة أو ممدّدة أو مهجّنة..

الأمر ليس عصياً؛ بل العصي أن يتهم بالفعل من كان خارج الفعل.

الأمر ليس صعباً؛ الصعب أن نبحث عن السبب في الاتجاه المعاكس.

الأمر ليس مكلفاً؛ المكلف أن تظل اللوحة بشروخها ميداناً لشروخ أخرى.

الأمر ليس مستحيلاً، إذا ما أريد للوحة فعلاً أن لا تثقب أو تمزق أو تُشوّش.

يحتاج الأمر إلى حساسية تجاه اللون، وخبرة تجاه الفرشاة، وفكرة حول ما يجب أن يكون..

والأهم الأهم أن تتوفر الرغبة الصادقة في إنجاز اللوحة/ الجائزة الرغبة الشفيفة الناصعة النابعة من الأعماق العذبة.. من دون ادعاء أو مواربة أو اتهام!!

سقفُ بيتي حديد

في الليالي الشتوية الحقيقية رياحاً ومطراً وبرقاً ورعداً، أتذكر تلك القصيدة:

سقف بيتي حديد ركن بيتي حجر

فاعصفي يا رياح وانتحب يا شجر

واقصفي يا رعود لست أخشى الخطر

كانت درساً في المنهاج، وحلماً في الخاطر، وتعويذة أستظهرها إلى جانب السور الكريمة التي تُبعد الخطر، تلك التي حفظتها مع إخوتي من كثرة ما دارت على شفاه أبويّ. وكنتُ أواصل ترديدها حتى تتحول أخشاب السقف المتصالبة حديداً؛ فأنام مطمئناً رغم أصوات الدّلف التي ترنُّ في الأوعية المعدنية، أو التراب الذي ينسرب من السقف الذي يهتزّ من جرّاء الرعد القاصف.

وصار السقف حديداً، سقف بيتي وبيوت الجيران، والبيوت الأخرى..

وغابت الأصوات الرتيبة، لكن النوم يبتعد!

أين الأمان وقد تحقق الحلم؟!

ولم الخوف لا يزال مهيمناً؟!

وهل لا يزال الخطر قريباً؟!

لاشك في أن أبنية كثيرة ليست أفضل بكثير من بيوت الحجارة والطين والخشب تلك، أساساتٍ وجدراناً وسقوفاً، بما يوازي ضمائر منفذيها وإخلاصهم وأخلاقهم؛ لكن قوىً كامنةً مجهولة في البيتون ــ لحسن الحظ ـ تحول دون انهيارات محتملة كثيرة!

ليس هذا وحده السببَ؛ فسقفنا أضمن أنه في حدود الأمان؛ لكن أي أمان؟! وأية حدود؟!

هل يقاوم زلزالاً؟! هل يصمد أمام انهيار أرضي؟! هل يقوى على الوقوف في وجه فيضان؟! وهل يستطيع دوام الاستقرار على فوهة بركان؟!

ليست هذه أوهاماً.. فقد تتالى اهتزاز الأرض في أوقات متعددة، ومنطقتنا منطقة زلازل وبراكين كانت ناشطة في أيام مضت.

وهل هذه هي الأسباب كلها؟! والجلطات والاحتشاءات تودي بالكثيرين شبّاناً أصحاء، وأي ورمٍ يحمل الخوف والقلق من نيّاته الخبيثة، والأمراض مجهولة الأسباب مستعصية العلاج تتزايد وتنتشر.. الأخبار الموجعة المقلقة، الموازين التي لا تزن بالقسطاس، والضجيج الذي يصم الآذان عن سماع الأنين.

وفوق هذا وذاك تثقب طبقة الأوزون، ويصبح كل شيء عرضة للتغيّر والتبدّل؛ بدءاً من المناخ حرارةً ومنخفضاتٍ وتياراتٍ، إلى الجغرافيا بما فيها مناطق الثلوج والغابات والبحار والصحراء..

إلـى الأحيـاء؛ مـن أدناهـا/ وحيـدات الخلايـا، إلـى أعلاها منزلة/ الإنسان(!).

فأيُّ أمانٍ وأية حدود؟!

وهل يمكن للمرء أن يتغافل عن الأخطار التي تتهدد البيئة والحياة برمتها؟! وهل بإمكانـه أن يتناسى الأخطـاء التـي يرتكبهـا أبنـاء جنسـه؟! والاحتمـالات التـي تتجـاوز قدرته على التكهّن أو المقاومة أو الترفع؟!

صـار سقف بيتـي حديداً وبيتونـاً، ومـا زلـت أخشـى الخطر!

سأغمض عيني وأردد: سقف أرضـي أوزون، علّنـي أنام!!

دبٌّ أصغر .. دبٌّ أكبر!

حينما المساءات ــ كانت ــ تفيض ظلمة وخوفاً وانتظاراً وتساؤلات، كانت السماء تقترب من الأرض، لتبتعد بالمتأمّل المحاصر بكل فصول الحرمان وطقوس الحصار، نحو آفاق ودهاليز تصل اليقظة بالنوم، والحقيقة بالأحلام، والحضور بالغياب. ما بين أسماء وأوهام وحكايات وأشباح وآمال.. فكان يعتلي الدبَّ الأصغر، أحياناً، متمنياً أن يصطحب بنات نعش، ليخبَّ معهن، أو يهرول فوق درب التبّان.. متطلعاً ذات اليمين وذات الشمال، علّ المتبّنين يأتون من بيدر غاصّ بالغمر، مترع بالأكياس والضحكات، لأن درباً تتكاثف فيها هذه النثارات كلها، لاشك في أنها عامرة بالأقدام وتواتر الحركة والأصوات المشاكسة. ولم يكن في الحيّز ما يمنع؛ بل إن العناصر والأشياء مترابطة ومتساوقة ومنسجمة، وإن تواصلاً ممكناً بين سطح الطين؛ حيث يضطجع المتأمل، ودرب التبان؛ فقد أضيفت ذرات التّبن إلى السطح مراتٍ، آناء الشتاء وأطراف الخريف والربيع، كي يساعد في تماسكه، فيقلل من انسراب الماء على الناشدين أماناً بالقرب من عتبات الجحور، وفي

متناول الحشرات الدابة والمجنحة؛ وثمة جَدْيٌ أصغر في الدار ذاتها، يذكّر كل حين، بأنه جدير باستمرار الاهتمام الذي يبدأ (مداره) من الصباح الباكر إلى الغروب المتأخر، بدلاً ـ ربما ـ من الدّبّين اللذين يوشيان السماء.. وإنه مع الجدي الآخر (كان الجَدْيُ الأكبر في دار الجيران!) لا يقلان شغباً وإشغالاً عنهما؛ والظلام المحيط يترك بهاء السماء أنيقاً مهيمناً، شاغلاً العقل الذي لا يحتاج إلى المزيد حتى يحلّق، ولا ينقصه المزيد حتى ينشغل؛ والصمت المقيم في الاتجاهات كلها، يجعل الفضاء مفتوحاً لضوضاء من نوعٍ آخر، ليست كلها قادمة من درب التبّان!

وكرّت سبحة المساءات مضغوطة ومحاصرة ومختنقة بالواجبات والهموم والخيبات، وتعددت الزوايا، وتباعدت الجدران وتقاربت، وتشظت الأفكار عن حكاية التبّان والمتبّنين، وغاب الجدْيُ الأصغر، وبرز الدبّ الأكبر أكثر، وأخذ مكاناً مهماً في السماء التي ما عاد ينظر إليها كثيراً، ولم تعد محط اهتمام وأفكار وتأملات، إلا للمتخصصين، الذين راحوا يجوسونها بحثاً عن أخوةٍ لنا في الحياة والهموم، عن نظراء لنا في المسؤولية عن هذا الكون ومداراته، وعن أندادٍ لنا في السيطرة على مفاوزه وثقوبه الملونة، وعن مُعِينين في الرد على أصداء انفعالاتنا، (التي نخمّدها في صدور بعضنا بعضاً، حين نعجز عن لَمِّ الصدى)، وفي الرد على تساؤلاتنا المتزايدة، عن سر الانفجار العظيم، واحتراق المستعر الأعظم، ولغز الفناء المحتوم.

منذ زمان، لم تكن السماء نصب عينيّ كما غدت فيما بعد، لم أكن مشغولاً عنها؛ بل لم يكن من سطح، أستطيع أن أرفع رأسي إلى فوق بلا ممانعة أو استحالة؛ لكن السماء غير السماء، ودروب التبّان باهتة، والدب الأصغر يكاد يختفي، والقمر ما من منتظرٍ له أو مفتقد؛ وحده الدب الأكبر، يظهر مهيمناً، بنجومه السبعة، بسينه المقلوبة، أو مغرفته الواسعة؛ لم أكن أستطيع تصوره في الماضي، ولم أستطع هضمه الآن، أو استساغته؛ وهو إن كان (في الماضي البعيد) هادياً لسراةِ الصحراء؛ حيث لا دالّ ولا دليل، في الليالي المشرعة على الفقد والرحيل.. فإنه اليوم زينة للسماء التي ما عادت تتزين، ووسام لها لا تحتاج إليه، ولا يراه إلا العاجزون الخائبون..

وما بين الدب الأصغر والدب الأكبر رحلة متطاولة متعرجة، ما ضلّ صاحبها وما قصّر، ما استسلم ولا أنكر، ما هان ولا استهان.. زرع لا كما يزرعون، وحصد ـ أو ينتظر أن يحصد ـ ما لا يحصدون، وما لا يحسبونه في عداد الإنجازات والمغانم.. وهاهو يحمل جناه على رأسه، أو في قلبه، ويسير الهوينى على درب التبّان التي تكاد تقفر، آملاً ومبتهلاً إلى من بيده الأمر والقدرة والجاه، أن يحافظ على ما تبقى من أصداء لهذه الدرب، ومتمنياً على بقايا ملامحها ألا تتبدد!

مذنّبٌ وأذناب!

أطرف ما سمعت من تفسيرات حول مذنّب (هالي ــ بوب) الذي أقام في أفقنا الغربي مدة ليست قليلة، نجمة مميزة، أن هذا المذنّب جاء لتبريد جو الأرض الذي يتعرض للتسخين، كما تؤكد الدراسات المتخصصة. وذلك عن طريق الكتلة الهائلة التي تشكل ذنبه المشع. والأطرف من هذا التفسير أنه جاء على لسان رجل أجنبي /ألماني تحديداً.

وبعيداً عن صحة أو خطل هذا التفسير، وقريباً من مكونات ذنبه، تلك التي تضيء نتيجة انعكاس أشعة الشمس، يخطر لي تساؤل يبدو من البدهيات وهو: لو أن نور الشمس لا يصل إلى تلك المكونات، فهل كان لذلك الذنب ظهور؟! ولو أن ذلك النور لا يصل إلى كتلة المذنّب الأصلية، ما الذي سيشعرنا به وهو يضيع في ظلام الفضاء الدامس؟!

ويقترب التساؤل أكثر: كم من الأشياء تدين بوجودها للشمس؟!

ولولاها لما كان لها من فعل أو أثر على أقل تقدير!

وإذا ما نزلنا من الفضاء إلى الأرض، وكائناتها، وبشرها تحديداً، يمكننا أن نعيد طرح السؤال ذاته، بطريقة حضارية:

كم من الذين يشعون، ليسوا سوى من مثال ذلك الغبار الملحق التابع؟! وإذا ما غاب المتبوع لأي سبب كان، ضاعوا في متاهات الإهمال ومسارب التغافل ومنعطفات التجاهل.

والأنكى من ذلك كله، أن هذه التوابع لا تعترف بهذا الواقع؛ تتباهى بضوئها وتتفاخر بزينتها، وتدّعي أنها الأصل والمنبع، وأنّها تستحق!!

وأن ذلك الذي يحترق بصمت ليعطيها بعض نوره، ليس له اعتبار أو فضل أو ذكر!

تتجاهله في حديثها، وتتجاوزه في عبورها المحموم، وسباقها المجنون؛ تفعل ما تريد وما ترغب به وما تمليه مصالحها وعقد نقصها.. ولا تتذكره إلا حين تتعثر، وتكاد (الفاس أن تقع في الراس)، فتتحدث باسمه، وترفع رايته، وتلتجئ إليه، وهو، بما آلى على نفسه من تضحية وفداء، ماضٍ في احتراقه، ماضٍ في إضاءاته وإشعاعاته، ماضٍ في كبره، مترفعاً حتى عن مساءلتها.. إن هذه (الأشياء) لن يغيّر من أصلها الزمن، لأنها بلا (أصل)! وهي ليست سوى بقايا وفضلات.. وليست حركتها سوى حركة حشرات ميتة في مياه الحياة!

إن السكوت عنها لا يجعلها تحسّ، ولا تستطيع قراءة العبر لأنها أمّية بالمعنى الثقافي والإنساني..

إن تربتها فقيرة، لا تستطيع الاحتفاظ بموجبات الحياة؛ فلا ينبت المعروف معها، ولا يفوح الأريج في

زواياها، لأنها غير قابلة للإشعاع الذاتي، وغير قادرة على العطاء..

إنها آخذة بامتياز وناكرة بامتياز ومدعية بامتياز.

إنها أذنابٌ بامتياز!!

معضلة

ما يزعجني كثيراً ويقلقني أكثر مشاهد العراك والشجار أياً كانت. ويكفي موقف من مثل هذه المواقف أن يحرمني الراحة والنوم، ويعيدني إلى تخيّل الإنسان البدائي المتوحش. ومن المؤسف أن الصبر يكاد يصل حدوده لدى الكثيرين، إذا لم يكن قد وصل فعلاً. ومن العجيب حقاً توافر هذه الرغبة في المشاحنات، والاستعداد لخوضها وحتى لافتعالها من دون أن يكون في كثير من الأحيان ـ كما يبدو ـ ما يوجب!

إن حادثاً بسيطاً يكاد يقع بين سيارتين يستوجب عراكاً، يصيب بجروح من لم يكن ليصب ربما من جرّاء الحادث نفسه في ما لو وقع، من دون أن ينتظر المتعاركون معاينة الأمر أو تحديد المسؤولية، التي هي على الغير دائماً؛ أما نحن فبراء من أية مسؤولية، إنه أمر يدعو إلى التوقف والمراجعة:

لماذا يكون الحق على الآخرين دائماً؟! لماذا نحن جاهزون لإيجاد المسوّغات التي تطهرنا؟! ولدينا كل القرائن والدلائل التي تلصق المسؤولية بسوانا؟!

ويمكن أن تودي بك نظرة ـ وإن كانت عابرة ـ إذا طالت قليلاً صوب أحدهم، إلى حوار مسخّن سلفاً، وعليه أن يعجبك وإلا..

لماذا هذا الحنق الجمعي؟!

السائق حانق على الركاب والسائقين الآخرين، والركاب حانقون على السائقين.

المسؤول يشتكي دائماً من أن مرؤوسيه لا يقدرون الواجب، وليس لديهم حس بالمسؤولية؛ والمرؤوسون مغبونون دائماً من المدير الذي لا يقدر ظروفهم، ولا يترك لهم حرية الحركة، كأنهم لا يفقهون!

الزوج حانق على الزوجة التي لا تقدر عمله وأعباءه وكدّه وراء تأمين لقمة العيش ـ حتى إن كان يملك ما تعتاش منه قبيلة بأكملها ـ ولا تهتم بالأولاد.

والزوجة مغتمّة كثيراً لأن الرجل سيد لا يناقش، ولا يعرف حاجة البيت ولا مسؤوليته، وكله على رأسها، من دون أن يكون لها معين أو مقدِّر..

والأولاد مظلومون من الأهل المقصرين في حقهم، يعاملونهم صغاراً، ولا يتركون لهم حرية التفكير والتصرف، ويريدونهم كباراً في سلوكهم وأقوالهم وأفعالهم، من دون أن يؤمنوا لهم مستلزمات العيش الكريم، بما فيه سيارات وأطيان..

وغيره كثير..

إن هذه الأفكار المسبقة والتهم الجاهزة المتبادلة والدائمة تجعل من إمكانية حدوث مشاحنة أمراً متوقعاً.. يضاف إلى ذلك الطابور الخامس الذي يشحن ويحرض

بعلم أو من دونه، وإن بدا حديثاً عادياً تسلية أو قتلاً للوقت.. ليس إلا!

الإنسان كائن قلق تواق للمغامرة والتجديد، وهو توق لا ينتهي إلا لدى من تبلّدت أحاسيسهم أو وهنت محفّزاتهم، أو أتخمت جيوبهم وبطونهم، أو كثرت إخفاقاتهم ومحبطاتهم.

وحين لا يصل التوق إلى نهايته، ولن يصل، تقع (الدقّة) في رأس القريبين، معايشةً أو مسؤولية.

هذا ليس تسويغاً؛ بل تفسير يصح في حالات ويقصّر في حالات..

وهو لا يلغي أو يحجب الأسباب الكثيرة الأخرى كالفقر والعوز وقصور العقل والوعي وفقدان العاطفة وحمّى الاستهلاك والأنانية والطمع.. واليأس من المستقبل.

لكن الأمر الأخطر من كل ذلك، أن تتعرض أنت الذي تؤمن بالهدوء والحوار والمناقشة والاحترام المتبادل سبيلاً للوصول إلى تحديد المسؤولية، ومن ثم وضع الحلول والاقتراحات لأية مشكلة أو إشكال أو سوء فهم، لما يفوق قدرتك ـ رغم سعتها ـ على التحمّل زوراً بيّناً، وباطلاً مكشوفاً، وحقّاً مهدوراً، وقوّة غاشمة.. ماذا ستفعل؟! وكيف تتصرّف؟!

هنا المعضلة الكبرى..

الصياح والصباح

يصيح الديك باهتمام منذراً بقدوم الصباح؛ إنها مهمته اليومية/ لعبته الدهرية، ربما كان يظن أنه هو الذي يأتي به، ولولا صياحه /نداؤه المتواصل/ إلحاحه ورجاؤه لم يكن الفجر ليأتي! لاشك في أنه يقنع نفسه بذلك، ويشغل وقته، ويعلن عن معنى حضوره وأهميته وجدواه.

وهل يلام؟! أنا لا ألومه في ذلك. لقد اكتشف عزاءه الذي يساعده ـ لو كان يفكر ـ على قبوله منطق الحياة المعذبة والمهام المستحيلة والعمر المحدود. وما أكثر ما يحدث لنا نحن الجنس العاقل مثل هذا؛ إذ يحسب البعض منا أن الكون مسخّر لنا، وبالتالي لولانا لما كان من مسوّغ للانفجار الكبير ولدوران الأرض والكواكب وتراتب الفصول، وربما احتراق الشمس. ويذهب البعض إلى إشغال نفسه بأمور قد تكون تافهة، ولا علاقة مباشرة لها بالوجود وكنهه وأسئلته، ولكن ضرورة الشعور الداخلي بالأهمية والانتصار والراحة التي يؤمنها الإحساس بالجدوى، كلها أمور تحض على مثل ذلك. وقد يتجاوز الحال مجرد التسلية والبحث عن الجدوى بطرق سلمية وبنوايا طيبة إلى لعب بالنار، فيتأذى

اللاعب نفسه، ويتضرر الآخرون الذين قد لا يكون لهم علاقة، وتصبح القضية مرضية خطيرة تحتاج إلى علاج.

ولنعد إلى الديك الذي يقلق النائمين بإيذانه بالفجر، وهو يظن أنه يقدم لهم خدمة، ويحسّ ربما بأنه يضحّي في سبيلهم، تصعيداً لحالة الإحساس الأكبر بالفاعلية والجدوى. رغم أن النائمين يعرفون أن الفجر آتٍ بما يحمله من عناء وعذاب ومسؤوليات وواجبات.. وهم سيفيقون في الصباح، ويعودون إلى سياق المجرى الحياتي، الأمر الذي لا بد منه، ولا مناص! كل الديوك تصيح قبيل الفجر، إلا ديكاً كان في ضيعتنا يطيب له الصياح في عز السهرة.. وكنا نضحك منه، ومن خطأ توقيته، ولكنه يصر على ذلك غير آبهٍ بانزعاجنا أو سخريتنا.. فيخترق صوته الحاد سمر المساء ضحكاً أو اشتباكاً أو مشاكسة أو لعباً أو غناء. فيتوقف كل شيء، ثم تعلو الضحكات ويعود برنامج الفراغ إلى استكمال فقراته. لكن إصراره على موقفه ورأيه وزمنه، كان أن قرّب أجله، فقد وقع اختيار صاحب الدار عليه إيفاءً لِنذْر حل تنفيذه.

يخطر في بالي ذلك، حين تتكاثر آراؤنا النقدية، فهل هي في محلها وهل توقيتها مناسب؟! أم أن كتابتنا وأفكارنا وأمنياتنا ليست سوى وهمٍ؟! وهل هذا الوهم مهم لنا إحساساً بالمسؤولية والجدوى، أم هو واجب تمليه علينا مواقعنا ورسالتنا التي نذرنا لها؟!

وأفكر أحياناً أن الأهم هو تنبيه الآخرين. ثم أقول: ما الفائدة إذا كان الناس نياماً؟! ولكن هل هم نيامٌ فعلاً؟!

أم أنهم متيقظون، غافلون، لا مبالون، مستفيدون، خائفون أو عاجزون..

وما ينفع ما تقول إذن؟!

وليست هذه أعظم المسائل.. لكن الطامة الكبرى إن كان توقيتنا غير مناسب!

مع ذلك فالصياح أفضل من السكوت، في أي وقت جاء!

وافِقْ تُعرفْ!

حين يدغدغ الرنين منافذ الحالمين، وتهيمن الروائح الشهية على مفاوز العبور، وتتلامح المشاهد المخصبة على مسارح الفعل المنشورة في كل مكان..

حين يكون التيار جارفاً، والأصوات تصم الآذان، والدويّ يهدر في الآفاق والأمداء، تصبح شروط البقاء الكريم على كفّ عفريت.

وحين يصبح الانجراف ضرورياً، والسكوت عن الحق جواز عبور، وتغدو الموافقة حتمية، تتشابك الرؤى، وتتداخل القناعات، وتتماهى الألوان لوناً واحداً يغلف الجهات، وإن كان بلا طعم أو صدى..

حينئذٍ؛ لو قلت إن هناك لوناً آخر يمكن أن يكون جميلاً، لن يسألك عنه أحد، ولن يسمعك أحد؛ ولو قلت: هناك صوتٌ آخر يمكن أن يكون جديراً بالاستماع إليه، لن يعيد قولك أحد. ولو قلت إن هناك علاماتٍ فارقة لوجهٍ ما يجدر تَقَرّيه، لبرمت عنك الوجوه، ووجمت الملامح واكفهرت.. ولو قلت هناك شكل آخر، لكلام آخر لصرت في زمان آخر ومرضٍ آخر ومشفى آخر!

عندئذٍ؛ لو وقفت وقلت لدي قناعاتي، ومبادئي وأفكاري؛ لقالوا: انقعها واشرب ماءها علك تشفى.. ولو

انتبذت لنفسك مكاناً منعزلاً، لتفكر بطريقة تحلو لك، أو تغني بطريقة تستسيغها، أو تستمع لنداء يخصك، أو تراجع أقوالاً وأحداثاً عن موقع مختلف، لرجمك الراجمون، واتهمك المتهمون بأنك خارج على القانون، قانون العقل الذي أنت فاقده.

ولو طاب لك أن ترقص رقصة خطرت لك في لحظة إشراق أو تأمل على إيقاع مختلف، قد لا يسمعك الآخرون، لكنه يظهر من حركاتك المختلفة عن حركات الراقصين في الجوقة الكبرى.. صرت نشازاً وجب تشذيبك؛ ولو أمسكت الملعقة باليمنى والسكين باليسرى وأنت على مائدة عامرة قدر لك أن تدعى إليها، كان لزاماً عليك اتباع دورة تحضُّرٍ، ولو كنت أعسر..

والأشد مرارة من المر ذاته، أن ما يصيبك لا يكون إلا من أفواه الأتباع وأيدي الحراس، وأرجل الحشم، من دون أن تتبارك بتلك الأيدي، أو تتمسَّك (من المِسك) أو تتعنبر من رذاذ المنعمين.

وعلى ذلك، أيها الناشز الأحمق المتخلف.. لن تُعرف مِن تَخَالُفِكَ أو مخالفتك أو فرادتك، ولن تصل إلى شيء مميّز يتحدث عنه الآخرون، ولن يكون حتى ذِكْرٌ في سيرة عظيمة سيفرد لها التاريخ سفراً مهماً...

أما لو استطعت أن تبجّل التيار بطريقة جديدة، فأنت موهوب، ولو قبلت أن تباري القوّالين بالمبالغة في القول المادح، فأنت مبدعٌ مُجِلّ..

ولو تمكنت من توليف صفات أكثر قدرة على إبراز المميزات التي أنعم الله بها على بعضهم، أو ابتكار صور جديدة للشكل السائد تجمّله وتزيّنه، فأنت أكثر الواصلين، وأوفر الحاصلين، وأغنى المبدعين والمحظوظين...

ولو قضيت عمرك الواحد في البحث عما يؤكد قوة القوي وضعف الضعيف، وحقّ الظالم وجرمَ المظلوم، فستكون أشهر من نار على علم، وستفوز بجوائز كثيرة قديمة ومستجدة، وربما صرت محكِّماً في مبارزات مماثلة.

إذن؛ عليك أن تقبل أنك في زمن القطب الواحد، والقول الواحد، والزناد الواحد، والألم الواحد، واللون الواحد، والعرق الواحد، والتاريخ الواحد.. ولو كنت ستعيش عمراً واحداً لا يكفي في أحسن الأحوال لنفض الغبار عن ملامح تحاول أن تظهر مرة واحدة بشكل مغاير، أو تضحك من القلب.. رغم أنك تعيش في القرن الواحد بعد العشرين!

خوف الآخرين!

"تذكّري دائماً أن الآخرين خائفون أكثر منك".

هذا ما كان يقول للروائية التشيلية المعروفة (إيزابيل الليندي) جدُّها الذي تحترم. حسب ما ورد أكثر من مرة في روايتها السيرية "باولا". ويذكّر هذا القول بقصة قصيرة لتشيخوف، عن مسّاح تأخّر في إحدى القرى، واستأجر عربة لتقلّه إلى قريته البعيدة عبر طريق موحشةٍ مثلجةٍ، وتهيمن عليه حكايات ومسموعات عن قطاع طرق متعاونين مع سائقي العربات، خاصة في مثل تلك الظروف، فيبدأ المساح محادثة السائق بقلق. ثم يوصيه كل لحظة بأن يحذر، لأن أصحابه قادمون وراءه، وعليه أن يخفف من حركة خيوله كي يلحقوا بهما، وهم أبطال معروفون لا يخافون من أحد ولا يهمهم شيء، والسائق يستمع من دون أن يتفوه بكلمة. وكلما ابتعدا في وحشة الدرب والليل زاد المسّاح من لهجته، وبالغ في وصف قوة أصدقائه القادمين وفروسيتهم، هم الذين قتلوا قبل ذلك العشرات.. كان كلامه يتصاعد مع تصاعد خوفه ووساوسه، وبعد حين، وبينما كان المساح يوالي تحذيره للسائق، ويتابع مسلسل الرعب في حديثه عن شراسة أصدقائه وشدة بأسهم، قفز السائق من

العربـة، وغـاب فـي دغـل بـين الأشـجار والظلمـة صـائحاً مرتعباً..

هذه القضية، أقصد وصية الجد وفكرة القصة، مهمة في عدّ اعتبار النفس وحيدةً معاناةً وأسىً وقنوطاً.. وهي تعطـي إحساسـاً بالثقـة بـالنفس التـي تعـاني مـا يعانيـه الآخرون، وربما كان لدى الآخرين ما هو أشدُّ وأمرُّ.. وقد قالت الخنساء يوماً في معنى مقارب:

ولــولا كثــرة البــاكين حــولي

علــى إخــوانهم لقتلــت نفســي

ومهمٌ جداً أن لا يعدّ المرء نفسه أساس الشرور، أو منبع المآسي، وأن لا يبالغ في تأنيبها وتحميلها أسباب الهـزائم والمصـاب كلهـا، طبعـاً مـن دون أن يعنـي هـذا الابتعـاد عـن المراجعـة والنقـد الـذاتي للأقـوال والأفعـال، لتصحيح المسار، أو استخلاص ما يمكن استخلاصه من عبر وفوائد، قد تساعد في ما سيلي من أعمال أو مهمات أو مسؤوليات.. إن مفهوم المشاركة مهمٌّ في التخفيف من حدة الألم أو هيمنة الخوف أو عبء المسؤولية، هذا الذي قد يؤدي إلى سواد في الأفق وضباب في الرؤيا، وعذاب في ممارسة العيش الذي يغدو كابوساً ضاغطاً لا يرحم. لكن أمراً آخر قد لا يصح مع مثل هذه الحال.. أقصد في عدّ الآخرين خائفين أيضاً..

إنه أمر يجعلك ـ لو لم تكن مقتنعاً ـ تعيد النظر في كل مواقفك وقيمك وأخلاقك. وربما جعل سواك، ممن لـيس لـديهم قـوة الصـمود أو متانـة الإرادة أو صـلابة الاقتناع، يفكّرون ويتصرفون بطريقة مختلفة..

الأمـر شـديد الوضـوح إلـى درجـة تتسـاءل معهـا بحرقة:

لـو كـان الآخـرون خـائفين أكثـر منـك أو مثلـك علـى الأقل، هل كانوا يقومون بما يقومون به؟!

وببساطة أكثر:

الآخـرون الـذين يتصـرفون مثـل تلـك التصـرفات؛ إذ يقولون مـا لا يفعلـون ويفعلـون مـا لا يـدّعون، وإن كانـت أفعالهم منظورة وأقوالهم مسموعة، وإنجازاتهم المشكوك في أصلها وجدواها وربما مشروعيتها بادية مشرعة.. لو كانوا خائفين أو مهتمين أو مسؤولين، هل كـان مثـل هذا يمكن أن يحصل؟!

البطء في السرعة!

الوقت يحز على أعصابك شفراتٍ عالية الدقة والشراهة، فتفتح شفتيك تألماً.

لكن، لا أحد يسمع أنينك، وربما حسبك الآخرون تبتسم مبتهجاً بالرحلة التي ـ وأنت في حيّزك الأصغر ـ تنقلك عبر العالم، العالم الذي يمضي بك على أمواجه السريعة المتكاثرة إلى أقاصي الأرض وأطراف الكون، إلى بؤر التوتر التي يوقدها من يوقدها بيدٍ، وباليد الأخرى ينقلك إليها أو ينقلها إليك، ويزكيها بالنفخ والأضواء والتحليلات، حتى تحرق أطراف قيلولتك المقلقلة أصلاً، فيتشوّك مضجعك الذي لا ينقصه الكثير من الوخز والكوابيس والأنّات.

إنه عصر السرعة، كما تطيب التسمية المفاخرة، إنها سرعة الاشتعال وسرعة الاستهلاك، إنها سرعة تبخر الأحلام، وسرعة اقتناص الفرص، وسرعة الانقضاض على الضحية التي لا تجد من الوقت والأمل والتفكير والجدوى ما يدفعها إلى الهرب؛ ناهيك عن المواجهة، فتقعد في انتظار الصفعة التالية!!

وإكراماً لاقتناعك بقبول هذا الحكم المبرم، وربما تنفيذاً لمبادئ حقوق الإنسان التي لاتني تنهمر من وصايا

القادرين على تفسيرها كما يحبّون، وتلوينها كما يشتهون، وأحكامهم.. واستكمالاً لشروط اللعبة التي بدأت، بغلطةٍ أو اكتشاف أو غواية أو نزوة ـ ربما ــ ولا أحد يعرف كيف ستنتهي؛ من أجل هذا كله فقد ازداد البث، وتكاثرت القنوات الأرضية والفضائية، وصار هذا المجال أيضاً ميداناً مهماً للسباق المحموم، والاستثمار الذي يبيض ذهباً ويدفع ذهباً، وتقعد أنت على ما لا يفقس مع الظروف والشروط والتلقيح، وعدم الأهلية ــ ربما ــ لمجاراة هذه الحياة بصيغتها المستجدة. وخلال هذه الساعات المتطاولة من الإرسال، تعيش مفارقة صارخة أخرى، تتمثل في تناقض الحال المتسارعة مع بطء ما يقدم من فقرات.

فمن جنون إيقاع الصور المتداخلة والمتشابكة والفكرة المتشظية في (فيديو كليب) الأغاني، وفي إيقاع الدعايات والإعلانات والدعوات للسهر والاحتفال.

وفي حضور سحري للملاحق الإخبارية والأخبار العاجلة، كتسارع الحروب ومشاريع التسوية التي لا تغني المحتاج، ولا تسمن غير الذي يشكو من السمنة، وكذلك في تسابق النينو والنّينا...

بين كل هذا ومعه، تجد اللقاءات المطولة جداً، تلك التي تمتد ساعات، يقال فيها كل ما يقال وما لا يقال، بدءاً من السيرة الذاتية، ومروراً بمختلف الانعطافات والمسارات والمفازات، في مختلف الفصول والمواسم، وانتهاءً بالمشاريع والأحلام والأفكار التي قد تجد لها حيّزاً في القرن القادم..

ساعات واتهامات وتسويغات وتنظيرات وتحذيرات تقضيها، وتستمع إليها من الشخصية هذه أو تلك، حتى تغدو أمامك فاقدة جزءاً كبيراً من ألقها.. حتى الشخصيات التي تحبها وتتمنى ــ كنت تتمنى ــ أن تعلم عنها أشياء، كانت ولا تزال غائبة عن متناول قراءاتك أو مسموعاتك؛ فإنك ما تكاد تفرح برؤيتها، وتراجع ما سمعت ورأيت، حتى تعود الشخصية ذاتها بكامل تفصيلاتها وأشلائها مع قناة أخرى، ثم قناة أخرى.. حتى تصبح عظماً بلا لحم.

لقد نسي الكثيرون أو تناسوا أن للإعلام وقوداً أيضاً، وأنه يستطيب طعم المشهورين والمميزين أكثر، وأن الاحتراق لا يرحم أحداً، وأن من ينكشف لك مرة ومرات، لن يبقى لديك نحوه ما يشد؛ بل إن ذلك يلقي مما كان عندك لقاء إسرافه في الظهور، أو لنقل إغراقه بالأضواء..

إن في هذا تعذباً، حين تشرح الضحية، أو تقدم على وضع نفسها على طاولة التشريح.. من دون أن يكون هناك متسع للتفكير في من هو الخاسر: المشاهد المنتظر نبالاً تتكسر على نبال كثيرة غيرها، أم صاحب المقابلة الذي يحتاج إلى الكثير من التلميع من جديد، والمسوّغات للحضور كل حين.. ويضاف إلى هذا عرض المسلسلات المطولة ذاتها مرات، وفي مختلف الأقنية، وعروض المسرحيات كذلك أو مشاهد منها مرات ومرات، فيختصر العمر، وتجتر الغصّات، وتفيق من الخدَر الذي خلته لذيذاً؛ تحس بوجع في المفاصل، وخيبة في الفكر، وبرودة في الأحاسيس، تجعلك تنتقل لتتقبل الجرعة التالية من الحريق بلذة أكبر!!

وصول؟!

حين تصبح المرافئ نهاية المطاف، تفقد حيويتها ومعناها وجدواها، وتغدو بركاً للخطا العاثرة والآهات الشريدة، ومستنقعات للأحلام الآسنة!

حين تقتصر المرافئ على الوصول، تموت، لتكفّن الرغبة والأمل والإحساس بالحياة.

وصول.. وهل هناك من وصول؟!

وهل العمر يكفي؟!

من يقتنع بالوصول، يحكم على أيامه بالعقم، وعلى سنواته بالعرج، وعلى حياته بالعفن!

ومن لا يحلم بالوصول، ليس لديه دافع للخطو والمسير والعيش. وما بين الحالين تنتثر الخطا، وتخفق الأجنحة، وتتعدد المرافئ.

لا بدّ من أن يكون في المسير محطات للراحة والمراجعة، والاستعداد للانطلاق من جديد.

يمكن أن يكون في الرحلة فسحة للتوقف لا للوقوف، وفرصة للتزوّد بما يلزم في مرحلة تالية، قد تحتاج إلى عناصر جديدة، لأن بها ظروفاً مختلفة.

والوقت /العمر/ الزمن/ لا يسمح بالنوم المديد، ولا بالرضا الأكيد.

لا يمكن للمرافئ أن تكون مستقراً للأجساد المتعبة، والأرواح المنهكة، والأوقات الجليدية.

لا يمكن أن تكون مواقف مكرورة، وأفكاراً مستهلكة، وحكايات مجترة.

لا يصح أن تغفو المرافئ على لمسات نسيم يعلُلُ، وتستسلم لهمس يظلل؛ فتنسى أفقاً يتطاول، ومدى يتقافز، وأصواتاً تتعالى من تحت الجرف أو فوق الغيم أو خلف الفصول.

لا يليق بالمرافئ الانكفاء، حتى لو انتكس الموج، وتثاقلت السواري، وتهالكت الأشرعة، وتعكرت الزرقة، وناست المنارات، وترمدت مواقد التلال.

لا يليق بالمرافئ التشرنق، حتى لو حسبت أن في عبّها درة الدرر، وعروس المرجان.

المرافئ لا تؤوب إلاّ إذا سلمنا الراية، وأسدلنا الحجب على ما ينغص القلب والروح، وتوهمنا سلاماً يدوم.

لا يليق بنا الانتظار اليائس، والتحسر البائس، والتحلم الواهن، والتعلّق بحبال العرمط.

لا يليق التعود، والتعلل، والتأسي؛ فيما ما يزال في العمر بقية.

المرافئ لا تموت، إلاّ إذا أحجمنا عن العزم، وتخلينا عن الإرادة، ورمينا السلال خاوية.

المرافئ لا تموت ما دمنا نحس، ننبض، نقاوم، نتمنى، نأمل، نفيق..
وتستمر المرافئ للانطلاق، ما دمنا نعيش؛ نحاول..

مازلت تخطو

ها أنت تخطو.. مازلت تخطو، لحسن الحظ؛ الاتجاه عينهُ، والطريق ذاتها.. لكن بأبعادٍ ومسالك وأرضيات مختلفة، تساعد ـ هكذا يقال عن ميزاتها ـ على سرعة الوصول وأمانه. مواصفات الطريق الجديدة، لا تظهر جدواها على خطوك، فهو متباطئ متثاقل؛ خطوك لم يكن كذلك، على الرغم مما كان من خطورة الطرق، وضيق الجسور، والحفر المتعددة، وحدة الانعطافات وكثرتها، وشدة الانحدارات وعددها. الخطو كان متسارعاً، وإمكانية التجاوز ممكنة، واحتمال الوصول مؤكد.. ما الذي استجد؟!

ولماذا أنت عصيٌّ على هذه الإنجازات التي يفتخر بها سواك ويتنعّم؟!

هؤلاء الذين يُسرعون ويتجاوزون ويصلون!

بدأت المسير قبلهم بزمان، ويصلون ـــ وصل بعضهم ـــ قبلك بزمان! مشيت قبلهم، دللتهم على الطريق، وأشرت إلى الاتجاه، وراهنتهم.. ويسبقونك الآن ويشيرون إليك بما لا يليق بحضاريّتهم..

الاتجاه لم يزل كما هو، كل الأسهم المضيئة واللوحات الملونة تشير إلى ذلك، وتحدد السرعة

والمسافة.. لكن ليس هذا ما يؤكد لك أنه هو وأن السمت ذاته؛ بل صدىً من لهفة قديمة ساقت خطوك إليه، وتوق مُعَتَّقٌ مازال يشير ويضيء كالحباحب، ويرشدك إليه؛ لم تكن تحتاج إلى مثل هذه الأسهم، والإشارات، ولا السائرون معك..

الاتجاه ذاته رغم كل الواجهات المختلفة، والخلفيات المغايرة عما كان..

مازلت لا تحتاج إلى من يدل؛ أما الآخرون فيحتاجون إلى من يذكرهم كل لحظة أين صاروا، وماذا يجب أن يعملوا، وكيف هو الاتجاه.. ويمكن أن يضلّهم سهم مقلوب على لوحة صدمتها سيارة مجنونة، فيخرجون إلى دروب أخرى..

أو توقفهم وتحيّرهم إشارة ضوئية معطلة، وقد تؤخرهم دعوة ملصقة على أيّ من تلك الواجهات، من دون أن يقرؤوا تاريخها الذي يمكن أن يكون قد فات! ومن دون أن يتحققوا من الداعي، أو يتأملوا فيها أو يتفكروا في ما يمكن أن يكون وراءها.. فالأهم هو الدعوة، والوليمة، والاستراحة؛ استراحات كثيرة على الدرب الطويلة، يحتاج إليها المسافرون ـــ هؤلاء المسافرون العصريّون ـ للتزوّد بالمأكولات والمرطبات والوقود.

أنتم لم تكونوا تحتاجون إليها؛ فظل شجرة يكفي، إذا كان لا بد منها..

النشاط في أوجه، والعزيمة صلبة والخطو واثق، والجوع مهزوم.. فالزوادة كانت تكفي؛ الزوادة المليئة بمقوّيات ومنشّطات، ومرغبات ودافعات ذاتيّة كانت

تكفي، ولا داعي لكل هذه الروائح ولا مسوغ للروائح، التي تزكم الأنوف، وتجلب الصداع، وتبشّر بالتخمة والجلطات وما جَدَّ من أمراض فيروسية.

رغم كل هذا مازلت تخطو..

السؤال الذي لا تريد أن تسمعه أو تفكر فيه هو: لماذا ما تزال تخطو؟!

وهل من احتمال للوصول، وهل بقي من الإصرار أو الرغبة أو الحماسة أو العمر ما يكفي لذلك؟! السؤال الذي لن تسمعه رغم كثرة السخريات والمثبطات.. والجواب الذي لا تريد أن تصرّح به: هل بقي من الظروف والدوافع والإمكانيات والوقائع، ما يسمح بالتوقف والمراجعة والتقويم والبحث عن اتجاهات أخرى أفضل؟!

هل بقي من الكرامة والعمر والأمل ما يؤمن البديل إذا كان هناك من بديل؟!

مازلت تخطو

القامة ترنّحت، واللهاث يعلو.. ومازلت تخطو.. وهذا هو الشيء الوحيد المؤكد والممكن، ويمكن أن تَحْمُدَ وتَشْكُرَ من أجله، ولو إلى حين!!

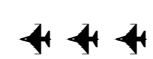

المحتوى

حلم الصباح 6
احتراق 9
إذا ضاعت المروءة!.....13
مشكلة؟! 17
ولات ساعة رجعة.....21
يتحدث إلى نفسه 25
ليست الأولى ولا الأخيرة.....28
ما يشبه الرجاء!.....32
ثقافة الخير.....36
نفحة هواء نظيف 39
ساكن الطريق العامة.....42
متطوع 45
الحقّ والثمن!.....49
يا بحر يا.....52
لم يقل.. لكنه فعل! 57
من شرّ البلية 61
ليست شكوى! 64
فواصل انتقالية.....68
مبالغة!.....72
لماذا؟! 76
امتلاء.....80
تساؤلات مُرة.....84
صور في البال 88
كل رأسٍ وأنتم بخير! 92
أنانية! 96
الضّحك من القلب!.....100
في المتحف.....104

أشجار حيّة! 108
صداقة! 112
حبّ! 116
من طرف واحد! 120
اللوحة 124
سقفُ بيتي حديد 128
دبٌّ أصغر.. دبٌّ أكبر! 132
مذنّبٌ وأذناب! 135
معضلة 139
الصياح والصباح 142
وافِقْ تُعرفْ! 146
خوف الآخرين! 150
البطء في السرعة! 154
وصول؟! 158
مازلت تخطو 162

نشرت مواد هذا الكتاب في عدد من الصحف والمجلات..